

في

العقيدة الإسلامية

للدكتور

أحمد محمد عبد العال الجفاوي

الأستاذ بقسم العقيدة والفلسفة

ووكيل كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

جامعة الأزهر

١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م

ا البتر من اصل الكتاب

{ ١ }

بسم الله الرحمن الرحيم

مة :

الحمـد لله رب العالميـن ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة
ـن سيدنا محمداً رسول الله وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه
بسنته إلى يوم يبعثون .

وبعـــد :

ذا هو الجزء الثاني من دراسات في العقيدة الإسلامية تناولت فيه
لموضـوعات على غرار المحاضرات التي قمت بتدريسها على
ة أصول الدين بطنطا جامعة الأزهر الشريف .
عنـي هذه الدراسة بالجوانب الأساسية من عقيدتنا حول الإيمان
م والقضـاء والقدر وحول الوحي والنبوة والملائكة وحول البعث
غير ذلك من الموضوعات .

د سلكت في هذه الدراسة المنهج العلمي المعاصر الذي يدعمه
نقلـي والعقلـي في أسلوب يتفق مع حاجة المسلمين المعاصرين
أن القرآن الكريم أرشدنا إلى المنهج الكامل المتكامل ، فقد قرر
وسنة الرسول ﷺ أصول العقيدة السليمة وسن أحكام الشريعة
نفس على قدر وسعها مع إحاطتهما بما تنتهي إليه
ا استقامت مناهجها وصدق الله العظيم إذ يقول :
بياناً لكل شئ وهدى ورحمة ، وقوله سبحانه
ئ .

فقــد نبه القرآن الكريم الحس وخاطب العقل وناجى الوجدان وأيقظ الضــمائر وحاسب السرائر ، وهذا العلم في تكوينه يخاطب كل هذه القوى التــي بهــا يرتبط الفكر البشري الذي يتخذ من سلوك الأفراد والجماعات مــنهجاً وسلوكاً يقوم عليها جميع ألوان نشاطات الإنسان الفكرية والعلمية والحيوية .

من هنا تظهر عظمة القرآن الكريم خصوصاً في هذا العصر الذي أصبح العلم فيه يمثل مساحات شاسعة من ممارسات هذا الجيل – فهو الذي يجعــل روح الوجــود العلمي تسوده لأنه رائده وإمامه – وهو الذي يجعل العقل والعلم والمعتقد السليم قوام الدين والدنيا ، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ **ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** ﴾ .

لذا فقد جاءت هذه الدراسة واضحة المعالم سهلة الأسلوب لا تعقيد فــيها ولا غمــوض .. ومــن ثم فإنا ندعو المولى جلت قدرته أن يمنحني الهدايــة والرشــاد والتوفــيق والسداد وأن تخرج هذه الدراسة إلى مجال الانــتفاع بها وقد آتي أكلها وأجاب طلبة الطالبين وحقق رجاء الراجين .. كما نسأله جلت قدرته أن يفقهنا في ديننا وأن ييسر لنا طريق العلم وينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علماً .. قال تعالى ﴿ **وقل رب زدني علماً** ﴾ .

" وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب " .

الفقير إلى عفو ربه الغني

أحمد محمد عبد العال الجغاوي

تمهيد :

لقد أرسل الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشاءت إرادة المولى سبحانه أن تكون رسالته خاتمة للرسالات السماوية ، وأن يكون دينه خاتماً للأديان وأن يكون كتابه الكريم الخاتم الذي يمثل آخر إرسال سماوي إلى أهل الأرض ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا وقد أكمل الله الدين ، وأتم النعمة . فقد قال تبارك وتعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ [١] .

لهذا فقد كان من أبرز ما يميز الفكر الإسلامي في دستوره الشامل الكامل وإيجابيته التي كونت وحدة الأمة الإسلامية على مر التاريخ هو احتفاظه بالميراث الأصيل منبع الصراط المستقيم فكان بحق هو الدين العام الخالد الصالح لكل زمان ومكان .

فكان كل رأي " سوى القرآن الكريم والسنة المطهرة " هو رأي ونظرية بين الصواب والخطأ وكل رافد من الفكر فهو نظرة جزئية ، وكل قطاع منفصل عن الكيان الإلهي يجب أن يرد إلى الدستور الصالح لكل البيئات المختلفة وعلى مر العصور المستطيلة .

ولقد حوى الكتاب الكريم على كل ما فيه سعادة البشر في الحياة الدنيا وفي الآخرة واشتمل على جميع المسائل المتعلقة بالعقيدة والتي يجب على المؤمن أن يعتقدها ويؤمن بها .

---

[١] سورة المائدة الآية رقم (٣) .

والعقــيدة هي الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به أولاً وقبل كل شئ إيماناً لا يرقى إليه شك ولا تمثل فيه شبهة .

فكانــت عقــيدة التوحــيد في الفكر الإسلامي لا تزال تمثل حتمية الــتاريخ وفكــره لأن الفكر الإسلامي استطاع تذويب المذاهب والنظريات المخــتلفة التي فرضت عليه خلال هذا التاريخ ، فاستقى منها ما يتفق مع مبادئه ومنهجه ورفض ما يختلف معه في القيم والثوابت الراسخة ، وهذه هــي مــرونة الفكر الإسلامي الأصيل المستمد من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة .

ففــي عصر نزول القرآن الكريم نلحظ أن القرآن الكريم اتخذ في تقريــر العقائد منهجاً ذا شقين ، أحدهما لهدم العقائد الفاسدة التي أصبحت فــي عــالم المعــتقد لا غــذاء فيها للروح أو القلب وثانيهما لبناء العقيدة الصحيحة التي تملأ جوانب النفس البشرية بالإيمان الصحيح .

ففي النوع الأول نلحظ أن القرآن الكريم قد سجل حال أهل الكتاب واختلافهم في العقيدة وضرب بعضهم البعض الآخر بقوله ﴿ **وقالت اليهود ليســت النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب** ﴾ [١] .

وكــان النبــي ﷺ يقول لهم ﴿ **لستم على شئ حتى تقيموا والتوراة والإنجيل** ﴾ [٢] وما كان يمكنهم إقامتها إلا بإقامة القرآن الكريم ، ويحكم

---

[١] سورة البقرة الآية (١١٣) .
[٢] سورة المائدة من الآية (٦٨) .

نبـــي الـــرحمة رســـول الله ﷺ ، فلما أبوا ذلك وكفروا بآيات الله ﴿ **ضربت علـــيهم الذلـــة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله** ﴾ [١] .

وإذا نظرنا إلى المعطلة من العرب وأصنافهم المختلفة كما صورهم الشهرســـتاني نلاحـــظ أنهـــم أصـــناف كثيرة منهم منكرو الخالق والبعث والإعادة ومنكرو الرسل وعباد الأصنام [٢] .

فالقرآن الكريم قد رد على هؤلاء بضرورات فكرية وآيات فطرية في كم آية وكم سورة فقال تعالى ﴿ **أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هـــو إلا نذيـــر مبيـــن** ﴾ [٣] . وقـــال تعالى ﴿ **أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض** ﴾ [٤] ، وقال سبحانه ﴿ **أو لمْ يروا إلى ما خلق الله من شئ** ﴾ [٥] . وقال ﷻ ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم** ﴾ [٦] .

يقـــول الشهرســـتاني : " فأثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق وأنه قادر على الكمال ابتداءاً وإعادة " [٧] .

وأمـــا الذين أنكروا البعث والإعادة فقد أخبر القرآن عنهم بقوله ﷻ ﴿ **وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم** ﴾ [٨] .

---

[١] سورة البقرة من الآية (٦١) .
[٢] الشهرستاني : الملل والنحل (٣ / ٧٩) .
[٣] سورة الأعراف الآية (٧٤) .
[٤] سورة الأعراف الآية (١٨٥) .
[٥] سورة النمل الآية (٤٨) .
[٦] سورة البقرة الآية (٢١) .
[٧] الشهرستاني : الملل والنحل (٣ / ٧٩) .
[٨] سورة يس الآية (٧٨) .

فاستدل عليهم بالنشأة الأولى إذا اعترفوا بالخلق الأول فقال تعالى ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة** ﴾ [١] وقال ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد** ﴾ [٢] .

ونحن هنا لا نستطرد في ذكر هذه الآراء ومن أراد المزيد فعليه بالرجوع إلى الملل والنحل للشهرستاني الجزء الثالث وهو يصور كل أصحاب هذه العقائد .

والقرآن الكريم حينما يشير إلى هذه العقائد عند أصحاب هذه الطوائف المختلفة كان يعقب على عقيدة كل طائفة بدليل صحتها أو فسادها فنجد مثلاً أن القرآن الكريم وهو يصور عقيدة أصحاب الدهر بالظن ، ذلك أن مذهبهم لم يقم على أساس علمي ثابت فقال تعالى ﴿ **ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون** ﴾ [٣] .

وكما استنكر القرآن الكريم الحكم بالظن فقد استنكر الحكم بالهوى أي الميول التي لا تستند إلى حق أو الآراء التي لا تستند إلى أي أساس موضوعي الذي هو نفسه غير حق كما يشير إلى أن الظن هو القول الكاذب الناشئ عن التخمين فقال تعالى ﴿ **وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً** ﴾ [٤] ، إذ ليس بعد الظن إثم في مقام العقيدة ، كما نجد أن القرآن الكريم قد جمع في أكثر من موضوع بين الظن والهوى وقد جمعها

---

[١] سورة يس الآية (٧٩) .
[٢] سورة ق الآية (١٥) .
[٣] سورة الجاثية الآية (٢٤) .
[٤] سورة يونس الآية (٣٦) .

في آية واحدة فقال ﷻ ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** ﴾ [١] .

والحقـيقة التـي ينبغي أن نركز عليها هي أن القرآن الكريم حينما يـرد على أصحاب هذه العقائد كان لا يطيل في حبال هذا الجدل سوى أنه يشـير إلـى عقـائدهم الفاسـدة كما يبين أدلة فسادها ، كما أنه لا يخضع لـبديهات العقل المقررة وخصوصاً عند أصحاب هذه العقائد فقد قال تعالى مخاطـباً رسوله ﷺ : ﴿ **وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعلمون . الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ [٢] .

لـذا فقـد أمـر الحق تبارك وتعالى رسوله محمد ﷺ بقوله سبحانه ﴿ **ادع إلـى سـبيل ربـك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ [٣].

النوع الثانـي :

يقـوم هذا النوع على إرساء قواعد الاعتقاد السليم بعد أن أبان لنا زيف العقائد الفاسدة .

فـإذا نظـرنا إلى أساليب القرآن الكريم لهذا النوع من الاعتقاد ، نلاحظ أنه تارة يدعو إلى لفت الأنظار إلى ما في الكون من ظواهر طبيعية تدل على أن لهذا الكون صانعاً كما جاء في قوله تعالى ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبـل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ [٤] .

---

[١] سورة النجم الآية (٢٣) .
[٢] سورة الحج الآية (٦٨ ، ٦٩) .
[٣] سورة النحل الآية (١٢٥) .
[٤] سورة الغاشية الآيات (١٧ – ٢٠) .

وكما جاء على سبيل التخصيص جاء على سبيل الأمر فقال تعالى ﴿ **قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ [١] . وجاء أيضاً على سبيل النظر إلى النفس كما في قوله تعالى ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ [٢] .

وأشار القرآن الكريم أيضاً إلى القياس المنظم الذي جاء على ضوء المقررات العقلية في النفس كما في قوله تعالى ﴿ **أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون** ﴾ [٣] .
وقوله تعالى ﴿ **أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** ﴾ [٤] .
وقوله تعالى﴿ **أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون** ﴾ [٥]

ويرى إقبال أن الهدف الرئيسي للقرآن الكريم في هذا المقام هو إيقاظ شعور الإنسان ليدرك ما بينه وبين الخالق وما بين الكون من علاقات متعددة [٦] .

لهذا فقد تحدث القرآن الكريم عن الله سبحانه وتعالى باعتبارات مختلفة سواء باعتبار الذات أو باعتبار علاقاته تعالى بالمخلوقات أو باعتبار علاقاته بالإنسان وعلاقة الإنسان به وذلك كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم .

---

[١] سورة يونس الآية (١٠١) .
[٢] سورة الذاريات الآية (٢١) .
[٣] سورة الطور الآيتان (٣٥ ، ٣٦) .
[٤] سورة الواقعة (٥٨) .
[٥] سورة الواقعة (٦٣ ، ٦٤) .
[٦] محمد إقبال : تجديد الفكر الديني (ص ١٦) ترجمة عباس محمود .

أولاً : باعتـــبار الـــذات : فقد وصف القرآن الكريم الحق جل شأنه بأنـــه هـــو الأول والآخر والظاهر والباطن والقيوم والواحد والحي والغني والباقـــي والحميد والمجيد والقوي المتين والعليم واللطيف الخبير والحكيم والســـميع والبصير والملك القدوس ، ونور السموات والأرض وغير ذلك مـــن الصـــفات التـــي تصف الحق جل شأنه غنياً بنفسه أبدياً واسع القدرة والمعرفة محيطاً بكل شئ وأنه الحق وحده .

ثانـــياً : باعتبار صلته بالمخلوقات : فقد تحدث القرآن الكريم بأنه جل شأنه الخالق وأنه المبتدئ والمعيد والبارئ المصور والمحيي والمميت إلـــى غـــير ذلك من النعوت التي تبين أنه الخالق المطلق باعتبار علاقاته تعـــالى بالإنســـان ، فقد وصف القرآن الكريم الحق جل شأنه بأنه الرحمن الرحيم والغافر والغفور يجازي الناس على حمدهم له .

ثالثاً : باعتبار علاقة الإنسان بخالقه : فقد أشار القرآن الكريم بأنه جل شأنه هو المهيمن والهادي والوكيل والولي والرازق إلى غير ذلك من الصـــفات ... فـــالله ســـبحانه وتعالى هو الخالق لكل شئ في هذا الوجود وإرادته هي سبب ما في الوجود كله يضل من يشاء ويهدي من يشاء [١]

فالقـــرآن الكريم قد رسم طرقاً تلتئم أحكم الالتئام مع كل الطوائف البشرية وتتسق أمتن الاتساق مع مختلف العقليات [٢] .

مـــن هنا نأخذ أن المنهج القرآني انفرد بمميزات ذات قيمة منهجية عظيمة منها :

---

[١] الدكتور محمد البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي (ص ٣٠) .
[٢] الدكتور محمد غلاب : المعرفة عند مفكري الإسلام (ص ١٢٤) .

١ – أن القــرآن الكريم قد خاطب العقل البشري في أروع مظاهر القوة والبيان والإقناع .

٢ – كانت طريقة القرآن الكريم شاملة تتناول العامة والخاصة بما يرضي العقول والقلوب ويمتع الوجدان ويحرك المشاعر .

٣ – اعــتمد طريقة الاستدلال القرآني على ما فطرت النفوس من الإيمان بما تشاهد وتحس وذلك أقوى في الحجة وأبلغ في الأثر .

٤ – لــم يخضــع القرآن الكريم لقواعد بشرية تخطئ وتصيب بل قواعده ثابتة ليس فيها إلا الصواب .

٥ – اتخــذ القرآن الكريم في تقرير العقائد منهجاً ذا شقين أحدهما زيف العقائد الفاسدة والآخر بناء العقائد الصحيحة .

٦ – كان القرآن الكريم في معالجته للعقائد الزائفة يجادل المعاندين بالحســنى كمــا كان يورد في مجادلة الخصوم أدلة فسادها بحيث يقنع ذو العقل السليم والفطرة المستقيمة .

٧ – كانــت الاستدلالات القرآنية تشمل التوجيه والإرشاد والدعوة بالتي هي أحسن .

الإيمان والإسلام

إن الإيمان هو الجانب القلبي في الدين الذي يتضمن المعرفة اليقينية الصحيحة والإسلام هو الجانب العملي الذي يتضمن أداء العبادات المطلوبة ومن ثم فإن العمل أساس الإيمان .

وقبل الحديث عن العلاقة بين الإيمان والإسلام نشير أولاً إلى معنى الإيمان والإسلام .

فالإيمان في اللغة يطلق على معانٍ منها : التصديق : تقول آمن به إيماناً أي صدقه وهو أيضاً : الثقة . وهو إظهار الخضوع وهو أيضاً : قبول الشريعة [١] .

والإيمان في الشرع له معانٍ أهمها : هو أن الإيمان التصديق بجميع ما جاء به النبي ﷺ فيما علم مجيئه من الدين بالضرورة فتفصيلاً فيما علم تفصيلاً وإجمالاً فيما علم إجمالاً .

وقيل : هو المعرفة بالله إلا أن منهم من ذهب إلى أنه المعرفة بالله وبما جاءت به الرسل عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام .

وقال قوم : إنه أعمال الجوارح . فذهب الخوارج والعلاف وعبد الجبار إلى أنه الطاعات فرضاً أو نفلاً . وذهب الجبائي وأكثر المعتزلة البصرية إلى أنه الطاعات المفترضة دون النوافل .

وقال السلف وأصحاب الأثر : إنه مجموع هذه الثلاثة . فهو تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان .

---

(١) الفيروزآبادي : القاموس المحيط (٤ / ١٩٧) .

ووجه الضبط : أن الإيمان عن فعل القلب والجوارح . فهو إما فعل القلب فقط وهو المعرفة أو التصديق ، وإما فعل الجوارح فقط وهو إما اللسان ، وهو الكلمتان أو غيره وهو العمل بالطاعات وإما فعل القلب والجوارح معاً والجارحة إما اللسان أو سائر الجوارح (١) .

ومعنى كلمة إسلام لغة : تطلق على الامتثال والخضوع والانقياد فيقال : أسلم فلان أي انقاد وخضع وامتثل الأمر وصار مسلماً .

أما الإسلام في الشرع فقد أطلق على الامتثال والانقياد لما جاء به النبي ﷺ وعلم من الدين بالضرورة . ولذلك فقد عرفوه بالامتثال للعمل الذي جاء به الإسلام من صلاة وصوم وحج وزكاة وغير ذلك والمقصود الامتثال والانقياد والإقرار بشرعية هذه الأعمال سواء عمل بالفعل أم لم يعمل ، وهذا رأي جمهور الأشاعرة .

الصلة بين الإيمان والإسلام :

من خلال تعريفنا للإيمان والإسلام نجد أن هناك علاقة وثيقة بينهما وخلاصتها : أن الإيمان والإسلام إذا ذكرا معاً كان لكل واحد منهما معنى يخصه ، فإذا أردنا أن نعرف الإسلام والإيمان معاً قلنا : إقرار اللسان بالوحدانية وبرسالة سيدنا محمد ﷺ مع العمل بالأركان .

والإيمان : تصديق القلب بما نطق به اللسان وبعمل الأركان التي قامت به الجوارح .

وإذا أردنا أن نعرف الإسلام وحده بدون ذكر الإيمان أو العكس .

---

(١) الإمام عضد الدين الإيجي : المواقف (ص ٣٨٥) .

قلـنا : هـو إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان فيصدق على الإسلام والإيمان .

مما سبق من معنى الإيمان والإسلام نلاحظ أن بين الإيمان والإسلام تلازماً حسب الحقيقة الشرعية المنجية ، مقتضى هذا التلازم أن كل مؤمن مسلم . وكل مسلم مؤمن ، لأن المصدق للرسول ﷺ التصديق الذي ذكر في تعـريف الإيمان والإسلام لابد وأن يكون خاضعاً لما جاء به الرسول ﷺ ، والخاضع هذا الخضوع لابد من أن يكون مصدقاً به كل التصديق [١] .

ومما يجـدر الإشـارة إليه أن تعدد الآراء حول تعريف كل من الإيمـان والإسـلام هـو الـذي يحدد الصلة بينهما ، ولذلك يقول شارح الطحاويـة : " اخـتلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافاً كثيراً .. فذهـب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديـث وأهـل المديـنة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين : إلى أنه تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان وعمل بالأركان " [٢] .

وإذا كان جمهور المحققين ذكروا أن الإيمان هو التصديق بجميع ما جـاء بـه النبي ﷺ ، وأما الإقرار باللسان فليس ركناً بل هو شرط لإجراء الأحكـام الدنيوية والعمل الصالح شرط للكمال وذكر أدلة نذكر منها على سـبيل المـثال قوله تعالى ﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾ [٣] فالإيمان محله القلب .

---

[١] الدكتور أحمد أبو السعادات : دراسات في العقيدة الإسلامية (ص ١١٣) .
[٢] ابن أبي العز الحنفي : شرح الطحاوية (ص ٢٨٤) تحقيق أحمد شاكر ، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الثانية ١٤٠٠هـ .
[٣] سورة المجادلة الآية رقم (١٤) .

وقولـــه تعالى ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ [١] ، وقوله ﷻ ﴿ **وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ [٢]

ومما ورد في السنة النبوية الشريفة قوله ﷺ في دعائه : " اللهم ثبت قلبـــي على دينك " ، وقوله ﷺ لأسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما وقد قتل من قال : لا إله إلا الله : " هلا شققت عن قلبه "

وفـــي هذه الواقعة وما قبلها من نصوص دليل على الإيمان ما وقر فـــي القلب وصدقه العمل إذا كان صالحاً يتفق وما نقل إلينا من توجيهات رســـول الله ﷺ ، من ذلك قوله تعالى ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهـــم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم** ﴾ [٣] . وقولـــــه تعـــالى ﴿ **إن الذيـــن آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً** ﴾ [٤] .

وقـــد اعترض على هذا الدليل فقيل : إن أعمال القلب كثيرة فمنها التصـــديق والقدرة وهذه النصوص وإن دلت على أن الإيمان محله القلب فهو لا يدل على خصوص التصديق دون سائر أعمال القلب ، ولذلك يقول صـــاحب المواقف : فإن قيل : فلم لا تجعلونه التصديق باللسان ، فإن أهل اللغة لا يعلمون من التصديق إلا ذاك ؟

قلنا : لو فرض عدم وضع صدقت لمعنى أوضعه لمعنى غير التصديق لم يكن المتلفظ به مصدقاً قطعاً ، فالتصديق إما معنى هذه اللفظة أو هذه

---

[١] سورة الحجرات الآية (١٤) .
[٢] سورة النحل الآية (١٠٦) .
[٣] سورة يونس الآية (٩) .
[٤] سورة الكهف الآية (١٠٧) .

اللفظة لدلالتها على معناها ، فيجب الجزم بعلم العقلاء ضرورة بالتصديق القلبـــي ويؤيده قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ وقوله تعالى ﴿ قالت الأعراب آمنا ... ﴾ .

أمـــا الكرامـــية فاحـــتجوا لما ذهبوا إليه بما تواتر عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ، أنهم كانوا يقنعون بالكلمتين ممـــن أتى بهما ولا يستفسرون عن علمه وعمله ويحكمون بإيمانه بمجرد الكلمتين ، والجواب عنهم .

فإنا نقول كما يقول الإمام عضد الدين الإيجي في المواقف ..
معارضته بالإجماع على أن المنافق كافر وبنحو قوله تعالى ﴿ قل لم تؤمنوا ولكـــن قولوا أسلمنا ﴾ ولا نزاع في أنه يسمى إيماناً لغة وأنه يترتب عليه أحكام الإيمان ظاهراً وإنما النزاع فيما بينه وبين الله .

كمـــا نقول أيضاً في الرد على هؤلاء : يلزمكم أن من صدق بقلبه وهـــم بالتكلم بالكلمتين فمنعه مانع من خرس أو غيره أن يكون كافراً وهو خلاف الإجماع [١] .

كمـــا احـــتج المعتزلة على أن فعل الواجبات هو الدين والدين هو الإســـلام والإســـلام هـــو الإيمان ففعل الواجبات هو الإيمان ، أما أن فعل الواجـــبات هـــو الدين فلقوله تعالى بعد ذكر العبادة ﴿ وإقام الصلاة وإيتاء الـــزكاة وذلك دين القيمة ﴾ . وأما أن الدين هو الإسلام فلقوله تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ .

---

[١] المواقف (ص ٣٨٦) .

وأما أن الإسلام هو الإيمان : فلأن الإيمان لو كان غير الإسلام لما قبل من مبتغيه لقوله تعالى ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل [illegible] ولاستثناء المسلمين من المؤمنين في قوله تعالى ﴿ فأخرجنا من كان فيها [illegible]

وقـد أجيب على هذا بأن ما استدلوا به من النهي عن ابتغاء غير الإسلام ديناً مبني على كون الإيمان ديناً مغايراً للإسلام حسبما تقتضيه الآية وليس كذلك ، كما أن لفظ ذلك إشارة إلى الإخلاص ، لأنه واحد منكر فلا يصح إشارة إلى الكثير والمؤنث – وهو أولى من تقدير الذي ذكرته إلا فيه تقرير اللغة هذا – والثالثة إنما تصح لو كان الإيمان ديناً غير الإسلام ففيه مصادرة لا تخفى [١] .

كما احتج المعتزلة بقوله تعالى ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي صـــلاتكم إلـــى بيـــت المقدس .. وأجيب بأن المراد في الآية بالصلاة هو التصديق بالصلاة ، كما احتج المعتزلة بأن قاطع الطريق ليس بمؤمن بدليل أنه مخزي لقوله تعالى ﴿ **ذلـــك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظـــيم** ﴾ [٢] ، والمؤمن لا يخزى لقوله تعالى ﴿ **يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه** ﴾ [٣] .

ويـــرد علـــى هـــذا بأن عدم الخزي في هذا اليوم خاص بالنبي ﷺ والصـــحابة فـــلا يعـــم المؤمنين جميعاً وليس في الصحابة قاطع طريق ، وأيضاً احتجوا بما ورد في السنة النبوية الشريفة من ألفاظ دالة على انتفاء

---

(١) المواقف (ص ٣٨٦) .
(٢) سورة المائدة الآية (٣٣) .
(٣) سورة التحريم الآية (٨) .

الإيمـــان عمن ارتكب معصية من المعاصي كقوله ﷺ : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " ، وقوله " لا إيمان لمن لا أمانة له " .

ويـــرد على هذا الاحتجاج بأن الحديث ورد على سبيل المبالغة في الـــتحذير والتغليظ ، والمراد نقص إيمان الكامل وترك قيد التقييد بالإيمان الكامل إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يصدر هذا الفعل عن المؤمن مطلقاً حتى لا يجـــرؤ أحـــد على افتراق هذه الآثام ونحوها ، كما أنه معارض أيضاً بأحاديـــث أخرى دالة على أن الإيمان ثابت لمرتكبي هذه المعاصي وأنهم يدخلـــون الجـــنة كقوله عليه الصلاة والسلام " من قال لا إله إلا الله دخل الجـــنة " ، ولمـــا قال أبو ذر وإن زنى وإن سرق قال ﷺ " وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبي ذر " .

زيادة الإيمان ونقصانه

إذا كانـــت آراء العلماء قد تنوعت في مفهوم الإيمان فيلاحظ أنهم اخـــتلفوا فـــي زيادته ونقصانه تبعاً لتنوعهم في مفهوم الإيمان ، فإذا كان مفهـــوم الإيمـــان هو التصديق القلبي والنطق دليل عليه والعمل كمال له ، فهل يزيد الإيمان وينقص أو لا يزيد ولا ينقص ؟

فإذا نظرنا إليه باعتبار العمل الذي هو شرط الكمال نلاحظ أنه يزيد بـــزيادة العمل الصالح وينقص بنقصه ، أي أن درجة العاملين تزاد رفعة ورقـــياً كلما ترقوا في أعمال الطاعات . ولهذا نرى أنهم اختلفوا في زيادة الإيمان ونقصانه .

ويهمنا أن نشير إلى رأي جمهور العلماء الذين قالوا بزيادة الإيمان ونقصـــانه لأن الإيمـــان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، فإذا لم تـــتفاوت حقـــيقة الإيمان بالزيادة والنقصان لكان إيمان أفراد الأمة مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة . وهذا باطل بداهة فبطلت المساواة وثبت التفاوت بالـــزيادة والنقصان ، هذا بالإضافة إلى النصوص الكثيرة في هذا المجال وذلـــك كقولـــه تعالى ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً** ﴾ [١] وقوله تعـــالى ﴿ **ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** ﴾ [٢] ، وقوله تعالى ﴿ **ويزداد الذين آمـــنوا إيماناً** ﴾ [٣] وقولـــه تعالى ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون** ﴾ [٤] .

---

[١] سورة الأنفال الآية (٢) .
[٢] سورة الفتح الآية (٣٤) .
[٣] سورة المدثر الآية (٣١) .
[٤] سورة التوبة الآية (١٢٤) .

وقولـــــه عليه الصلاة والسلام في شأن سيدنا أبي بكر : " لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح " .

ولقــد سأل ابن عمر ﷺ رسول الله ﷺ : هل الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار"

أمـــا الذيـــن قـــالوا بعدم الزيادة وعدم النقصان فعلى رأسهم الإمام أبـــو حنـــيفة معللين رأيهم بأن الإيمان أعلى درجات الإدراك ، فإذا نقص صار تردداً أو شكاً فلا يكون إيماناً وليس هناك مرتبة بعد القطع واليقين .

يقـــول الكمال بن الهمام : قال أبو حنيفة وأصحابه لا يزيد الإيمان ولا يـــنقص واخـــتاره مـــن الأشاعرة إمام الحرمين – وذهب عامتهم إلى زيادته ونقصانه – قيل الخلاف مبني على أخذ الطاعات في مفهوم الإيمان وعدمه فعلى الأول يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها وعلى الثاني لا ، لأنه اســـم للتصـــديق الجـــازم مـــع الإذعان وهذا لا يتغير بضم الطاعات ولا المعاصي . وفيه نظر بل قال بزيادته ونقصانه كثير ممن صرح بأنه مجرد التصـــديق لظواهر كقوله تعالى ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ ونحوه ، وعن ابن عمر قلـــنا يـــا رســـول الله إن الإيمان يزيد وينقص قال " نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار " .

وقـــالوا لا مـــانع مـــن ذلك بل اليقين الذي هو مضمون التصديق يـــتفاوت قـــوة في نفسه من أجلى البديهيات إلى أخفى النظريات القطعية ، ولذا قال الخليل ﷺ حين خوطب بقوله تعالى ﴿ أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ ، والحنفية ومعهم إمام الحرمين وغيره لا يمنعون الزيادة

والنقصان باعتبار جهات هي غير نفس الذات بل بتفاوته يتفاوت المؤمنون وروي عـن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أنه قال إيماني كإيمان جبريل ولا أقـول مـثل إيمـان جبريل لأن المثلية تقتضي المساواة في كل الصفات والتشـبيه لا يقتضيه فلا يسوي أحد بين إيمان آحاد الناس وإيمان الملائكة والأنبـياء بـل يتفاوت غير ذلك التفاوت بزيادة ونقص في نفس الذات أو بأمور زائدة عليها " [١] .

" والحـق أن الإيمـان – وإن كان معناه التصديق – يقبل الزيادة والنقصـان بحسـب الـذات وبحسـب المتعلق فإن التصديق من الكيفيات النفسـانية المـتفاوتة قوة وضعفاً ، وقولكم إن الواجب اليقين والتفاوت إلا بسبب احتمال النقيض ، فنحن لا نسلم هذا الحصر إذ يجوز أن يكون سبب الـتفاوت قوة اليقين أو ضعفه من غير احتمال للنقيض ، وكيف وكل واحد مـنا يدرك تماماً أن إيمانه ليس كإيمان النبي ﷺ ولا كإيمان أصحابه الذين شـهدوا مواقـع التنزيل ورأوا من آيات صدقه وتأييد الله له ما تطمئن به قلوبهـم وتقـوى عقائدهم ويشتد يقينهم ثم ما معنى قول إبراهيم عليه السلام ولكن ليطمئن قلبي ، إلا أنه يدل على قبول التصديق اليقيني للزيادة " [٢] .

ومـن خـلال ما سبق يتضح لنا أن الرأي الذي تطمئن إليه النفس والقلب في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق

---

[١] الكمال ابن الهمام : المسايرة في علم الكلام (ص ١٨٦ – ١٨٧) عليها شرح المسامرة بشرح المسايرة للأستاذ محي الدين عبد الحميد . المكتبة المحمودية التجارية الطبعة الأولى دون تاريخ .

[٢] المسامرة بشرح المسايرة (ص ١٨٧) .

وكـــيف لا وفي الأخبار " أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة مـــن إيمان " وفي بعض المواضع في خبر آخر " مثقال دينار " فأي معنى لاختلاف مقاديره إن كان في القلب لا يتفاوت " [١] .

إيمـــان المقلِّـــد

القلد – بسكون اللام في اللغة الجمع – يقال : قلد الماء في الحوض يقلده : أي جمعه ومنه التقليد . يقال : قلدت فلاناً ولاية كذا أي جعلتها إليه ومـــنه قـــلادة المـــرأة لأنها تجمع معها لتتزين بها ، فيقال قلدتها قلادة أي جعلتها في عنقها . ٠

وفي العرف : محاكاة الغير في قوله أو فعله أو هيئته . يقال : قلد فلاناً في قوله أو مشيه أو لبسه : أي حاكاه وفعل مثله .

وفي الاصطلاح : الأخذ بقول الغير من غير أن يعرف الدليل .

والتقليد ربما يكون في أصول الدين وعقائده وفي فروعه وأحكامه ، وذلك كتقليد الغير في الاعتقاد في وجوب صفة العلم لله تعالى من غير أن يعْرف دليله أو حال عجزه من إقامة الدليل عليها .

وإذا كانـــت المعـــرفة واجبة على كل مكلف ، والمعرفة لا تتم إلا بالدليل الإجمالي أو التفصيلي ، فإذا فقد المكلف الدليل فلا معرفة وأصبح التصديق تقلـــيداً ، فهـــل يكفي التقليد في العقائد ويعتبر إيمان المقلد صحيحاً أم لا ؟ ولقد اختلف العلماء حول إيمان المقلد هل هو كاف في النجاة أم غير كاف نظراً لعدم بلوغه رتبة الكمال حيث المعرفة التي هي الاعتقاد الجـــــازم

---

[١] الإمام الغزالي : إحياء علوم الدين (١ / ١٢٧) طبعة الحلبي ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

المطابق للواقع الناشئ عن دليل والتي بها تتحقق النجاة إن شاء الله تعالى .

وحاصل الخلاف فيه كما يقول صاحب جوهرة التوحيد " أقوالاً ستة :

الأول : عــدم الاكتفاء بالتقليد بمعنى عدم صحة التقليد فيكون المقلد كافراً وعليه السنوسي في الكبرى .

الثاني : الاكتفاء بالتقليد مع العصيان مطلقاً أي سواء كان فيه أهلية للنظر أم لا .

الثالث : الاكتفاء به مع العصيان إن كان فيه أهلية للنظر وإلا فلا عصيان

الــرابع : أن من قلد القرآن والسنة القطعية صح إيمانه لاتباعه القطعي ، ومن قلد غير ذلك لم يصح إيمانه لعدم أمن الخطأ على غير المعصوم .

الخامس : الاكتفاء به من غير عصيان مطلقاً لأن النظر شرط كمال ، فمن كان فيه أهلية النظر ولم ينظر فقد ترك الأولى .

الســادس : أن إيمــان المقلد صحيح ويحرم عليه النظر وهو محمول على المخلوط بالفلسفة " [١] .

ومنشأ هذا الخلاف راجع إلى الاختلاف في وجوب النظر والمعرفة فذهــب الإمــام أبو حنيفة وسفيان الثوري والأوزاعي وعامة الفقهاء وأهل الحديث إلى أن إيمان المقلد صحيح مع كونه من زمرة العصاة نظراً لتركه الاستدلال للوصول إلى الكمال بالمعرفة المشار إليها وهو قادر على ذلك.

وقــال غيرهم : شرط صحة الإيمان أن يعرف صحة قول الرسول بدلالة المعجزة ، وعند الأشعري أن يعرف ذلك بدلالة العقل .

---

(١) **الإمام إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري على الجوهرة (ص ٤٥) المطبعة العربية الحديثة ١٩٧٧م .**

وعـــند المعـــتزلة ما لم يعرف كل مسألة بدلالة العقل على وجه مكنه دفع الشبهة لا يكون مؤمناً [١] .

والصحيح ما عليه عامة أهل العلم ، فإن الإيمان هو التصديق مطلقاً كمن أخبر بخبر فصدقه صح أن يقال : آمن به وآمن له ، فإذا أخبر المقلد بما يجب الإيمان به فصدقه كان مؤمناً ويستحق ما وعد الله للمؤمنين [٢]

كمـــا أن الصـــحيح من الأقوال القول المبني على وجوب المعرفة بالدلـــيل على أساس وجوب فروع عند الاستطاعة أخذاً من قوله سبحانه : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ولأن النبي ﷺ قبل من الناس الإيمان دون أن يطالبهم بالدليل وعندما سئل عن الإيمان في حديث جبريل المشهور قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .... فذكـــر التصـــديق مجرداً عن الدليل فإذا أتى به المكلف مجرداً عن الدليل يكون آتياً بالإيمان .

---

[١] الإمام نور الدين الصابوني : البداية من الكفاية في الهداية في أصول الدين (ص١٥٤) تحقيق الدكتور فتح الله خليف . دار المعارف بمصر ١٩٦٩م .

[٢] المصدر السابق نفس الصفحة .

التوحيد جوهر الإسلام

إن التوحيد جوهر الإسلام وروحه وعقيدته ومحور عبادته المنوعة ، ومبدأ التوحيد يسري في تعاليمه كافة سريان الماء في النبات أو الأعصاب في البدن وقد وضح القرآن الكريم حقيقته وبسط فكرته وناقش ما قد يعرض له أو يعارضه .

فالتوحيد الإسلامي أصرح وأكمل ما أسسه دين في قلوب بنيه فقد فطر البشر جميعاً بطابع العبودية لله وحده وانتزاع كل شعور يتجه بالمرء إلى تقديس كائن ما – هنا أو هناك – كل ذلك من عناوين الإسلام وليس من إرشاداته الثانوية أبداً ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾ (١) .

والأنبياء جميعهم من لدن آدم عليه السلام حتى خاتمهم محمد ﷺ متفقون على أصول وهي :

١ – أن الله سبحانه وتعالى قديم واحد لا شريك له في ملكه لا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ولا شفيع إلا من بعد إذنه .

٢ – أنه لا والد له ولا ولد ولا كفؤ ولا نسيب بوجه من الوجوه ولا زوجة .

٣ – أنه غني بذاته فلا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى شئ مما يحتاجه إليه خلقه بوجه من الوجوه .

---

(١) سورة المائدة الآية (٧٢) .

٤ – أنـــه لا يتغير ولا تعرض له الآفات من الهرم والسنة والنوم والنسيان والندم والخوف والهم والحزن ونحو ذلك .

٥ – أنه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته بل ليس كمثله شئ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

٦ – أنـــه لا يحل في شئ من مخلوقاته ولا يحل شئ في ذاته شئ منها بل هو بائن عن خلقه بذاته والخلق بائنون عنه .

٧ – أنه أعظم من كل شئ وأكبر من كل شئ وفوق كل شئ وعال على كل شئ وليس فوقه شئ البتة .

٨ – أنه قادر على كل شئ فلا يعجزه شئ يريده بل هو الفعال لما يريد .

٩ – أنـــه عالم بكل شئ يعلم السر وأخفى ويعلم ما كان وما يكون ومـــا لم يكن لو كان كيف كان يكون ﴿ **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حـــبة فـــي ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس** ﴾[١] لا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته .

١٠ – أنـــه سميع بصير يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات علـــى تفنن الحاجات ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، فقد أحاط سمعه بجميع المعلومات وقدرته بجميع المقدورات ونفذت مشيئته في جميع البريات وعمت رحمته جميع المخلوقات ، ووسع

---

(١) سورة الأنعام الآية (٥٩) .

كرسيه السموات والأرض .

١١ – أنه الشاهد الذي لا يغيب ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده أو يعاونه عليها أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم .

١٢ – أنه الأبدي الباقي الذي لا يضمحل ولا يتلاشى ولا يعدم ولا يموت .

١٣ – أنه المتكلم الآمر الناهي قائل الحق وهادي السبيل ومرسل الرسل ومنزل الكتب والقائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر ، ومجازي المحسن بإحسانه والمسئ بإساءته .

١٤ – أنه الصادق في وعده وخبره ، فلا أصدق منه قيلا ولا أصدق منه حديثاً ، وهو لا يخلف الميعاد .

١٥ – أنه تعالى صمد بجميع الصمدية فيستحيل عليه ما يناقض صمديته .

١٦ – أنه قدوس سلام ، فهو المبرأ من كل عيب وآفة ونقص .

١٧ – أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه .

١٨ – أنه العدل الذي لا يجوز ولا يظلم ولا يخاف عباده منها ظلماً فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه ولا يخبر نبي بخلافه أصلاً [١] .

---

[١] الإمام ابن القيم الجوزية (ص ٢٩٩) هداية الحيارى تحقيق د/ أحمد السقا ، نشر المكتبة القيمة الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ .

لأن هــذا هو الحق الأبلج الذي اتضح من الشرائع السماوية ، وما عــدا ذلــك فإنما هو من وضع المبطلين الذين اتبعوا أهوائهم وانقادوا إلى شيطانهم فغفلوا عن رسائل أنبيائهم وتصوروا التصورات التي لم تكن تليق بالذات الإلهية ولا بإله استحق أن يسجد له كل من في الأرض والسموات فكان من الأولى التنزيه بدلاً من تلك النقائص المسجلة في التوراة المحرفة وكــان مــن الأولــى أن يوحد بدلاً من التثليث كما هو الحال في الأناجيل الموضــوعة . ولكن هذا الاتفاق السابق لا يوجد إلا في الدين الخاتم الذي جاء به الرسول الخاتم محمد ﷺ .

فالمتتــبع لآيات القرآن الكريم وسنة الرسول الأمين محمداً ﷺ التي تبين شئون الألوهية ، يجد أنهما قدما لها الصورة النقية الرائعة التي لا نجد لهــا نظــيرا فــي الأديان الأخرى واحتفظا بهذه الصورة النقية في جميع تعاليمه .

فتصــور الألوهية في الإسلام تصور كامل تام لا يتغلب منه جانب علــى جانب ولا يسمح بشائبة من شوائب الشرك ، ولا يجعل لله مثيلاً في الحس ولا في الضمير بل له تعالى ﴿ **المثل الأعلى** ﴾ [١] و ﴿ **ليس كمثله شئ** ﴾ [٢] .

ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء ، وله الأسماء الحسنى فلا تغلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمة والمحبة ، ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القوة والقدرة ، فهو قادر على كل

---

[١] سورة الروم الآية (٢٧) .
[٢] سورة الشورى الآية (١١) .

شئ وهو عزيز ذو انتقام ، وهو كذلك رحمن رحيم وغفور كريم قد وسعت رحمته كل شئ ، وهو الخلاق دون غيره ، قال تعالى ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ [١] .

فليس الإله في الإسلام مصدر النظام وكفى ، ولا مصدر الحركة الأولى وكفى ، ولكن ﴿ **الله خالق كل شئ** ﴾ [٢] ﴿ **وخلق كل شئ فقدره** ﴾ [٣] . ﴿ **الله يبدؤ الخلق ثم يعيده** ﴾ [٤] . ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ [٥]

ومما يجب الإشارة إليه هنا أن تصور الألوهية موجود لدى جميع الأمم والأديان ، ولكنه تصور خاطئ أو ناقص ، ولكن الإسلام جاء بمفهوم الألوهية الصحيح الكامل ليهدي إليه ، وليبين التصورات الشائعة ويدعو إلى التصور الصحيح .

ومجمل ما يقال في عقيدة الذات الإلهية التي أتى بها القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ أن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات [٦] .

فالله هو " المثل الأعلى " . وهو الواحد الصمد الذي لا يحيط به الزمان والمكان وهو محيط بالزمان والمكان ، ﴿ **وهو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ [٧]

---

(١) سورة فاطر الآية (٣) .
(٢) سورة الزمر الآية (٦٢) .
(٣) سورة الفرقان الآية (٢) .
(٤) سورة الروم الآية (١١) .
(٥) سورة يس الآية (٧٩) .
(٦) الأستاذ عباس العقاد : الله (ص ١٥٥) .
(٧) سورة الحديد الآية (٣) .

﴿ **وسع كرسيه السموات والأرض** ﴾ [١] ﴿ **ألا إنه بكل شئ محيط** ﴾ [٢] .

وكما نادى الإسلام بوحدانية الله وأحديته ، بين كذلك أن الدين واحد وهو الإسلام ، وهذا ما نشير إليه في الصفحات التالية بإذن الله تعالى .

إن الدين عند الله الإسلام

إن كلمـــة الإســـلام فـــي اللغـــة تطلق على الامتثال ، والانقياد ، والخضوع فيقال : أسلم فلان أي : انقاد وخضع ، وامتثل الأوامر ، وصار مســـلماً [٣] ، فالإســـلام الـــذي هو الدين الإلهي معناه : الاستسلام لله ، والخضوع والانقياد له في أمره ونهيه على لسان الوحي الذي جاء مع كل نبي ورسول أرسله الله لعباده .

إن المتتـــبع لدعوة الأنبياء والرسل يجد أن كل نبي كان يدعو قومه إلـــى الدين الحق ، والدين الحق هو الإسلام قال تعالى ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ [٤] .

فحقـــيقة الديـــن عـــند الله تعالى أزلاً وأبداً هو الإسلام ، يدل على شمول هذا الدين لجميع الأنبياء والرسل جميعاً قوله تعالى ﴿ **شرع لكم من الديـــن مـــا وصـــى بـــه نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموســـى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب** ﴾ [٥] .

---

[١] سورة البقرة الآية (٢٥٥) .
[٢] سورة فصلت الآية (٥٤) .
[٣] القاموس المحيط (٤ / ١٣٠) .
[٤] سورة آل عمران الآية (١٩) .
[٥] سورة الشورى الآية (١٣)

فاســم هذا الدين الذي حمله الأنبياء جميعاً هو الإسلام ، وهذه التسمية التي سمى بها هذا الدين في أرض الله وفي سمائه على حد سواء ، قال سبحانه وتعـالى : ﴿ **أفغير الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون** ﴾ [١] .

إن الإســلام ديــن الله الخــالص وهو دين الأنبياء والرسل والبشر جمــيعاً ، وهــنا يخــبرنا المولى ﷻ بأنه لا دين عند الله غير الإسلام قال تعــالى ﴿ **ومــن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ [٢] .

إن وحدة الدين عند الله تعالى عقيدة أساسية ، وتعدد الأنبياء لم يكن لتعدد الأديان التي جاءت من عند الله تعالى ، فالظروف الزمانية والمكانية بيــن الرســول ﷺ وبين الرسل الكرام قبله لم تكن حائلة أمام هذه الحقيقة المرتكــزة على التوحيد ، فحينما يكون لها أثر يأتي النبي المرسل من عند الله تعالى ليضع الدين بين أعين الناس مرة أخرى ويبلغهم رسالة الإسلام.

فالإســلام هو دين الله منذ أقدم رسول ، والقرآن الكريم يقرر هذه الحقــيقة ذات المغــزى العميق في دلالتها على استغراق هذا الدين لجميع الأنبياء والرسل ، قال تعالى ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهــيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾[٣]

---

[١] سورة آل عمران الآية (٨٣) .
[٢] سورة آل عمران الآية (٨٥) .
[٣] سورة البقرة الآية (١٣٦) .

فكما اتفقت كلمتهم في العقيدة فقد اتفقت كلمتهم كذلك في اسم الدين فاسم الدين الذي حمله الأنبياء جميعاً وواجهوا به أقوامهم فيما يحكيه القرآن الكريم عنهم هو الإسلام .

فهـذا نوح عليه السلام يقول لقومه ﴿ .. **يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إليه ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ [١] .

وفي شأن سيدنا إبراهيم عليه السلام يقول القرآن الكريم ﴿ **ومن يرغب عن ملـة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمـن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ [٢] .
وقوله ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ﴾ [٣] .

وقولـه ﷻ فيما يخص إبراهيم وقومه ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقـوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنـتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قـالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل واسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون** ﴾ [٤] .

ومن هنا نلاحظ في هذا المحيط من هذه الوحدة الشاملة أن القرآن

---

[١] سورة يونس الآية (٧١ ، ٧٢) .
[٢] سورة البقرة الآية (١٣٠ ، ١٣١) .
[٣] سورة البقرة الآية (١٢٨) .
[٤] سورة البقرة الآية (١٣٢ ، ١٣٣) .

الكريم ينفي عن سيدنا إبراهيم عليه السلام أنه كان على ملة غير الإسلام قال تعالى ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين** ﴾ [(١)] .

وأنبياء بني إسرائيل أسلموا لله تعالى ، قال تعالى ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونوراً يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا** ﴾ [(٢)] .

وهذا موسى عليه السلام يخاطب قومه فيما يحكيه القرآن الكريم فيقول لهم ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ [(٣)] .

وسليمان عليه السلام كان يدعو بلقيس ملكة سبأ لدينه فقد بين لها أن هذا الدين هو الإسلام فيقول لها ﴿ **ألا تعلو على وأتوني مسلمين** ﴾ [(٤)] .

وبلقيس نفسها حين أسلمت بينت أن اسم الدين الذي رضيته وأسلمت وجهها لله فقالت ﴿ **رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ [(٥)] .

وبها نطق الحواريون فقالوها رداً على سؤال وجهه عيسى عليه السلام لهم قالوها لعيسى وللتاريخ ﴿ **فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون** ﴾ [(٦)] .

وقالها فرعون نفسه حين أدركه الغرق ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل**

---

(١) سورة آل عمران الآية (٦٧) .
(٢) سورة المائدة الآية (٤٤) .
(٣) سورة يونس الآية (٨٤) .
(٤) سورة النمل الآية (٣١) .
(٥) سورة النمل الآية (٤٤) .
(٦)

البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ (١) .

كما قالها السحرة بعد أن أبصروا الحق الصراح في ساحة فرعون ﴿ **ومـــا تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** ﴾ (٢)

مـــن هنا نأخذ أن الدين عند الله الإسلام ، وأن ما جاء به من هدى وما تنزل به من نور إنما يستقي من هذا النبع الذي نهلت منه الديانات وأن طريق الله لا يتعدد مناحيه ولا يتعارض جوانبه .

فدين الله واحد جاء به الأنبياء والرسل جميعاً ، تعاقدوا عليه وأخذوا الميـــثاق والإيمان بكل رسالة تأتي وفاءاً بهذا ، فهذه هي الصورة العميقة لمعـــنى الإسلام ، دين الله الذي حمله الأنبياء والرسل جميعاً ، قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصـــدق لمـــا معكـــم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ (٣) .

وبعـــد ، فهـــذا هـــو الإسلام ، في سماحته وعموميته وشموله لكل الرسالات التي جاء بها الأنبياء ، فلا داعي لتعريف الإسلام بغير ما عرفه الله بـــه ، إن الإسلام دين الله الذي جاء به الرسل جميعاً ، فكل الرسالات والدعوات يجب أن تعود إلى أصلها الواحد .

---

(١) سورة آل عمران الآية (٥٢) .
(٢) سورة يونس الآية (٩)
(٣) سورة الأعراف الآية (١٢٦) .

القضاء والقدر

تمهيـــــد :

لــم تكن مسألة القضاء والقدر شيئاً جديداً بحثها المعتزلة أو غيرهم من المتكلمين ، لأن الفلاسفة اليونانيين قد سبقوهم بذلك وبحثوا أفعال العباد وأطلقــوا على ذلك مسألة القضاء والقدر ، أو الجبر والاختيار ، أو حرية الإرادة ، وهــذه التسميات كلها في معنى واحد ، وهو أن كل ما يحدث من الإنسان من أفعال هل هو حر في إحداثها أم مجبور في ذلك .

وكـــان مرد هذا التساؤل هو ما يحسه الإنسان في نفسه من التردد بين دائرتي الجبر والاختيار ، فتارة يحس من نفسه أنه مقهور على أفعال لا يســتطيع الامتناع عنها وأخرى يحس في نفسه بقدرته على إتيان أفعال بمحض اختياره .

فوقــف الإنســان جائراً بين كل من الاتجاهين : الجبر والاختيار وفــوق هذا الإحساس الباطني للإنسان ، فقد كان للمسألة شأن آخر وهو : إذا كان الإنسان حراً فيما يأتيه من الأعمال وما يتركه منها ، فإن هذا يعني أنـــه مطلق السلطان ، وفي هذا ما يتعارض مع ما يحسه للموجود الإلهي الســـامي الله جـــلا جلاله الذي يحس نحوه بالعظمة والكمال ، وأنه وحده منفرد بالسلطان المطلق والهيمنة الكاملة لكل ما في الوجود.

كـــان هـــذا بدايـــة لفرض مشكلة القضاء والقدر نفسها على الفكر الإنســـاني حـــتى إذا كان الإسلام الحنيف وكان القرآن الكريم المنزل على أفضل المرسلين سيدنا محمد ﷺ ، أخذت المسألة وصفها النهائـــي الحاسم

ســـواء فـــي جانب الجبر أو الاختيار فقد جاء في كتاب الله تبارك وتعالى آيـــات تؤيـــد وجهة نظر القائلين بالجبر ، وآيات أخرى تؤيد وجهة نظر القائلين بالاختيار كذا جاءت بعض الآيات القرآنية تجمع الآية الواحدة بين مفهومي الجبر والاختيار .

إلا أن الدلائـــل العقلية لم تحسم الموضوع بل كانت متأرجحة بين الاتجاهيـــن الجـــبر أو الاختيار ، ولذلك فقد عدت هذه المسألة من أصعب المســـائل فـــي الفكر الإنساني وأبعدها غوراً ولذلك فقد وصفها الفيلسوف الأندلســـي ابـــن رشـــد عند تعرضه لدراستها بأنها " من أعوص المسائل الشـــرعية وذلك إذا تؤملت دلائل السمع في ذلك وجدت متعارضة وكذلك حجج العقول [١] .

وهاهو الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى يحس بخطورة هذه المسألة فـــيقول : هذه مسألة قد استصعب على الناس فأنى يطيقونها ثم تحدث إلى القدريين حين أتوا إليه يناقشونه أما علمتم أن الناظر في شعاع الشمس كلما ازداد نظرا ازداد حيرة [٢] .

هـــذه هي مسألة القضاء والقدر وهذه صعوبتها ، فكانت مثار أخذ ورد بين الفرق الإسلامية ، فبينما ذهب البعض إلى الجبر الخالص ، ذهب الـــبعض الآخـــر إلـــى إثبات حرية الإرادة الإنسانية ، كذا حاول آخرون الوقوف موقفاً وسطاً بين كل من الطرفين المتقابلين .

---

(١) ابن رشد : مناهج الأدلة (ص ٢٢٣) تحقيق الدكتور محمود قاسم .

(٢) الدكتور علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٦) .

وإذا كـــان لنا من رأي أقدمه هنا التماساً للتعرف على وجهة النظر الحق في هذه المسألة .

ولذلـــك فلست أزعم أن ما أقدمه جديداً لم أسبق إليه أو إنه سيقطع الموضـــوع برأي حاسم لا يحتمل الجدال أو النقاش ، كلا ، وإنما هو رأي نقدمـــه في هذا المجال محاولين النظر فيه إلى الموضوع بعد سياحتنا في كتب علم الكلام .

وقـــبل أن نعرض وجهة نظر القائلين بالجبر والاختيار نحاول أن نعرض هنا معنى كلمتي القضاء والقدر .

أولاً : القضـــــاء :

قـــال الإمـــام ابن منظور في كتابه لسان العرب في مادة " قضى" القضـــاء : الحكم . يقال : قضى يقضي قضاءاً : إذا حكم وفصل ، وقال : القضـــاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشئ وتمامه ، وكل ما أحكم عمله أو أتم أو أدى أداءاً أو أوجب علم أو أمضى فقد قضى ، قال : وجاءت هذه الوجوه كلها في الحديث ، وقضى الشئ قضاءاً : صنعه وقدره ومنه قوله تعالى ﴿ **فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها** ﴾ [١] ، والمعنى أي فخلقهن وأحكم خلقهن ويكون بمعنى الأمر كما جـــاء في قوله تعالى ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ [٢] ، وقضى أي أمر ويكون بمعنى الصنع والتقدير .

---

[١] سورة فصلت الآية (١٢) .
[٢] سورة الإسراء الآية (٢٣) .

فقوله ﷻ ﴿ **فاقض ما أنت قاض** ﴾ [١] معناه فاعمل ما أنت عامل ، وجـاء بمعـنى الحكـم كمـا في قوله تعالى ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمـوك فـيما شـجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسـلموا تسـليماً** ﴾ [٢] فقضـيت هنا بمعنى " حكمت " كما جاء بمعنى الإرادة كما في قوله تعالى ﴿ **بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقـول له كـن فيكون** ﴾ [٣] " قضى" بمعنى " أراد " ويأتي أيضاً بمعنى الإعـلام والإخـبار كمـا في قوله تعالى ﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب** ﴾ [٤] والمعنى أخبرناهم بما نريد أن نقوله لهم .

وهكـذا نلاحـظ أن لفظ القضاء جاء في كتاب الله تعالى بمشتقاته لا بلفظـه . وعلى ضوء ما تقدم نلحظ أن هذا اللفظ من الألفاظ المشتركة المتـنوعة إلا أن الذي ينظر إلى معاني هذه الكلمة يلحظ أنها جميعاً تنزع مـنزعاً واحدا وتلتقي عند معنى واحد ، هو الفصل أو الحسم أو الإنجاز ، فأمـر الله لا يقع إلا ومعه الحسم والإنجاز ، وكذلك خلقه وحكمه وإرادته وعهده كلها تقع في حسم وإنجاز [٥] .

---

[١] سورة طه الآية (٧٢) .
[٢] سورة النساء الآية (٦٥) .
[٣] سورة البقرة الآية (١١٧) .
[٤] سورة الإسراء الآية (٤) .
[٥] الأستاذ عبد الكريم الخطيب : القضاء والقدر (ص ١٤٩) .

ثانياً : القـــــدر :

قال الإمام ابن منظور أيضاً في لسان العرب مادة " قدر" وهو ينقل عن التهذيب القدر القضاء الموفق . يقال قدر الإله كذا تقديراً ، وإذا وافق الشئ الشئ قلت جاءه قدره قال : القدر والقدر : القضاء والحكم ، وهو ما يقـــدره الله ﷻ من القضاء ويحكم به من الأمور قال تعالى ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر** ﴾ [١] أي الحكم كما قال ﷻ ﴿ **فيها يفرق كل أمر حكيم** ﴾ [٢] . وفي حديث الاستخارة ط اللهم إني أستقدرك بقدرتك " أي وأطلب منك أن تجعـــل لي عليه قدرة وقدر الرزق يقدره : قسمه وقوله ﷻ ﴿ **ثم جئت على قدر يا موسى** ﴾ [٣] .

وتأتـــي كلمـــة القدر ويقصد بها العلم في الأزل والحتم في الإنجاز وذلـــك كما جاء في قوله تعالى ﴿ **وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمـــر قد قدر** ﴾ [٤] أي على أمر قد علم في سابق علم الله سبحانه وتعالى وتحـــتم تحققـــه ، وقـــال تعـــالى ﴿ **فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين** ﴾ [٥] ، وقال تعالى ﴿ **إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين** ﴾ [٦] .

ومعنى القدر الذي جاء في الآيتين السابقتيـــن ، هو التقدير الـــذي

---

[١] سورة القدر الآية (١) .
[٢] سورة الدخان الآية (٤) .
[٣] سورة طه الآية (٤٠) .
[٤] سورة القمر الآية (١٢) .
[٥] سورة النمل الآية (٥٧) .
[٦] سورة الحجر الآية (٥٩ ، ٦٠) .

سبق علمه في الأزل مع تحتم إنجازه وتحقق وقوعه قال تعالى ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ (١) ، فمعنى " قدراً " هنا : أي أمراً جرى وتقدير في الأزل ومعنى " مقدوراً " أي حقيقي الوقوع والإنجاز وهذا المعنى قد جاء في قوله تعالى ﴿ **فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى** ﴾ (٢) .

والقدر الذي جاء في هذه الآيات هو الذي يجب الإيمان ، فمن لم يؤمن فقد دخل فيمن يخاصم ربه تعالى في قدره ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن مشركي قريش جاءوا إلى النبي ﷺ يخاصمون في القدر فنزل قوله تعالى ﴿ **إن المجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شئ خلقناه بقدر** ﴾ (٣) .

وأما معناهما في الاصطلاح :

قال علماء الأشاعرة إن قضاء الله تعالى هو إرادته الأزلية المتعلقة في الأزل بجميع الأشياء خيرها وشرها على ما هي عليه فيما لا يزال .

والقدر : إيجاد الله تعالى لجميع الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبقاً للإرادة وهذا البيان يقضي بأن القضاء هو الإرادة باعتبار تعلقها التنجيزي القديم بالكائنات فيكون قديماً وأن القدر من صفات الأفعال فيكون حادثاً .

وقالت الماتريدية : القضاء هو إيجاد الله تعالى الأشياء مع الأحكام

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٨) .
(٢) سورة طه الآية (٤٠) .
(٣) سورة القمر الآيات (٤٧ – ٤٩) .

والإتقـــان علـــى الوجـــه الأكمل ، والقدر علمه تعالى أزلاً بما تكون عليه المخلوقـــات فيما لا يزال ، وعلى هذا يكون القضاء حادثاً لأنه راجع إلى صفات الأفعال ويكون القدر قديماً لأنه راجع إلى صفة العلم .

وأمـــا الحكمـــاء يذهبون إلى أن القدر هو خروج الموجودات إلى الموجود المتحقق بأسبابها على الوجه الذي قضى به الله سبحانه وتعالى .

وأمـــا المعتزلة ومذهبهم أن العبد خالق لأفعاله الاختيارية وأن الله لا يـــريد الشرور والمعاصي قالوا لا قضاء ولا قدر بالنسبة لأفعال العباد الاختـــيارية بالمعنى الذي قاله الأشاعرة وأن الثابت إنما علمه تعالى بهذه الأفعال ووجودها في الخارج مرتبط باختيار العباد وقدرهم (١) .

ولمـــا كان مذهب الماتريدية أن الأشياء الحادثة التي تقع في الحياة إنمـــا تكون على وفق ما قدره وعلمه الله أزلاً ، وكون العلم بها سابقاً على وقوعهـــا وكونها واقعة حسب علم الله الأزلي هو المعنى الذي ربما تطمئن إليه النفس لمعنى القدر في هذا المقام .

الإيمان بالقـــدر :

إن من العقائد الإيمانية الثابتة في الإسلام الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره من الله تعالى ، والإيمان بالقدر هو الإيمان بتقدم علم الله تعالى لكـــل مـــا كـــان وما هو كائن وما سيكون وأنه قد كتب كل شئ في كتاب محفوظ ، وأنه لا يقع شئ إلا بمشيئته سبحانه وتعالى وإرادته ، وأنه تعالى

---

(١) الشيخ أبو دقيقة : مذكرات في التوحيد (ص ٣٢٤ – ٣٢٥) .

قـــادر على كل شئ من الممكنات ، وأنه تعالى رب كل شئ وخالقه ، فلا رب غيره ولا خالق سواه ولا مدبر إلا هو ، وقد نص على ذلك قول الحق جل شأنه ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾ [١] .

وقوله تعالى ﴿ **وكل شئ أحصيناه في إمام مبين** ﴾ [٢] .

وقوـــله تعالى ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ [٣] .

وفـــي الســـنة : عن أبي هريرة ﷺ قال : جاء مشركو قريش إلى رســـول الله ﷺ يخاصمون في القدر فنزل قوله تعالى ﴿ **إن المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شئ خلقناه بقدر** ﴾ [٤] .

كـــذا وردت أحاديـــث كثيرة في القدر وكلها تؤكد وجوب الإيمان بـــالقدر خـــيره وشره حلوه ومره من الله تعالى وأن ما شاء الله تعالى كان ومـــا لـــم يشأ لم يكن وأن الله تعالى قدر مقادير الخلق قبل أن يخلقهم في كتاب محفوظ .

فعـــن يزيد بن وهب بن عبد الله قال : حدثنا رسول الله ﷺ قال : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم علقة مثل ذلك ، ثم

---

(١) سورة الرعد الآية (٨ ، ٩) .
(٢) سورة يس الآية (١٢) .
(٣) سورة التوبة الآية (٥١) .
(٤) سورة القمر الآيات (٤٧ – ٤٩) .

يكـــون مضـــغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع : رزقه وأجله وشقي أو سعيد ، فوالله إن أحدكم أو الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكـــون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجـــنة فـــيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبيـــنها غـــير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها " [١] .

فالإيمـــان بالقضاء والقدر واجب ، إلا أنه ربما يجوز الاحتجاج به بعـــد الوقوع لدفع اللوم كما أشار إلى ذلك صاحب جوهرة التوحيد فقال : وإنمـــا يجـــوز الاحتجاج به بعد الوقوع لدفع اللوم فقط فلا بأس به ، ففي الحديـــث الصـــحيح : أن روح آدم التقت مع روح موسى عليهما الصلاة والسلام فقال موسى لآدم : أنت أبو البشر الذي كنت سبباً لإخراج أولادي مـــن الجنة بأكلك من الشجرة فقال آدم يا موسى : فأنت الذي اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده تلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين ألف سنة . قال النبي ﷺ : فحج آدم موسى أي غلبه بالحجة [٢].

ثالثاً : القول بالجبر :

ذهب أصحاب هذا القول إلى أن الإنسان مجبور على أفعاله ، وأنه لا قـــدرة له ولا اختـــيار ، فـــالله تعالى هو الخالق لأعمال الإنسان وليس للإنسان في أعماله خلق ولا إحداث ولا اكتساب ، وإنما الإنسان كريشـــة

---

[١] الإمام البخاري . صحيح البخاري . كتاب بدء الخلق . باب : الملائكة . وكتاب الدعوات باب القدر .

[٢] الإمام إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري على الجوهرة (ص ١٣٢) .

معلقة في الهواء تصرفها الأقدار كيف شاءت .

وقد عرف هذا القول عن الجهمية الذين كانوا يعرفون بالجبرية الخالصة [١] . وقد كان على رأس هذا القول جهم بن صفوان ، فكان يرى أن الإنسان مجبر على أفعاله وأنه لا استطاعة له أصلاً ، وكان يقول إن الإنسان لا يقدر على شئ ، ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور في أفعاله ، لا قدرة له ، ولا إرادة ، ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال كما تنسب إلى الجمادات . كما يقال أثمرت الشجرة وجرى الماء وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، واهتزت الأرض وأنبتت ، إلى غير ذلك ، والثواب والعقار جبر كما أن الأفعال كلها جبر ، قال : وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً [٢] .

فالجهمية الجبرية لم يفرقوا بين ما يصدر من الإنسان على سبيل الضرورة أو على سبيل الاختيار ، لأنهم قد أسندوا كل ما يصدر من الإنسان إلى الله تعالى على أنه خلقه ومحدثه في الإنسان ، فقد قالوا : إن العباد مضطرين إلى الأفعال المنسوبة إليهم وليس لهم فيها اكتساب ولا لهم عليها استطاعة وأن حركاتهم الاختيارية بمنزلة حركة العروق النوابض في اضطرارهم إليها [٣] .

---

(١) الإمام الإسفراييني : التبصير في الدين (ص ٦٣) .
(٢) الشهرستاني : الملل والنحل (١ / ٨٧) .
(٣) البغدادي : أصول الدين (ص ١٣٥) .

رفض الإسلام لفكرة الجبرية المطلقة :

لقد أدت آراء الجبرية إلى إلحاق الأذى الشديد بالمجتمع الإسلامي ، فقد احتج البعض من الناس بآراء هذه الفرقة في ارتكابهم المعاصي وكانوا يقولــون إن أعمالنا تجري على قدر الله ، وكانوا يقولون : علم الله تعالى ولابد أن يقع ما علم .

إلا أن هناك حقيقة لا مجال لإنكارها وهي : أن هناك أفعالاً تصدر عــن العــباد وأن هــذه الأفعــال تنسب إليهم ، ذلك أن الحس يشاهد وأن الوجــدان يشــهد بذلك ، فالذي يرفع يده بالسيف ويضرب آخر فيقتله أنه هــو الذي قتله وضربه ، فنسبة الأفعال إلى من صدرت عنه من العباد ما لا يحتاج إلى بحث ونظر ذلك أن القرآن الكريم يقول : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ [١] وقوله ﷻ ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ [٢] .

هــذا الفعل المنوط به الثواب والعقاب المنسوب للإنسان ، إنما هو الفعل الإرادي الصادر عن الإنسان المكلف ، فالتكليف قد بني على أساس من القدرة والاختيار . وعلى هذا فما ذهب إليه أهل الجبر من أن الإنسان مجبور في أفعاله وأنه لا يقدر على شئ ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور في أعماله .. الخ ..

أقول أن هذا الزعم باطل :

وذلك لمصادمته بديهية الشعور والحس ، فهناك فرق بين حركــة

---

[١] سورة الشورى الآية (٣٠) .
[٢] سورة الزخرف الآية (٧٢) .

الإنسان الاختيارية وحركته الاضطرارية فهو مدرك لفعل الأولى غير مدرك للثانية .

فالمذهب الجبري يؤدي إلى ترك العمل والركون إلى الكسل فيجعل من الناس اتكاليين ، وفي هذا حد للنشاط الإنساني وقتل لروح الطموح في الإنسان ، فقد ورد في كتاب الله تعالى الكثير من الآيات التي تضيف أفعال العباد إليهم من مثل قوله تعالى ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ [١] وقوله تعالى ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ [٢] . وقوله تعالى ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها** ﴾ [٣] .

فلو كان الإنسان مجبراً في أفعاله وأن أفعال العباد صادرة عن الله تعالى لقبح منه تعالى التكليف وانسد باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كذا لو صح المذهب الجبري لصح نسبة الظلم إلى الله تعالى " تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً " حيث يخلق أفعال عباده ثم يعاقبهم عليها والله تعالى قد أسقط التكليف عن عباده فيما لا يقدرون عليه ، وجعل نطاق التكليف فيما هو في وسع المكلف . قال تعالى ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ [٤] .

وبعد فالمذهب الجبري لا يقوم على أساس سليم ، سواء أكان من

---

[١] سورة المدثر الآية (٣٨) .
[٢] سورة فصلت الآية (٤٦) .
[٣] سورة الأنعام الآية (١٠٤) .
[٤] سورة البقرة الآية (٢٨٦) .

ناحية الفطرة الإنسانية أو من ناحية النصوص المصادمة لهذا المذهب ، فلا مجـــال بحال ما إلى القول بأن الإسلام دين يذهب إلى الجبر وأن الإنسان مقهور في أفعاله كلها تصدر عنه دون إرادة واختيار ، فهذا لا يمثل الروح الحقيقـــية للدين الإسلامي الذي يدعو إلى العمل والسعي على الرزق ، قال تعالى ﴿ **فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ [١] .

ولكـــن هـــل يعنـــي نفي الجبر عن الفعل الإنساني أن الإنسان حر مختار يأتي ما شاء من الأفعال ، ويدع ما شاء منها دون أن يكون خاضعاً لقوة عليا أو إرادة مطلقة ؟

هذا ما نتناوله في النقطة التالية :

رابعاً : القول بالاختيار :

أحدثت آراء الجبرية صدى كبيراً في نفوس الكثيرين ، فلما نشأت فرقة المعتزلة وتكونت نادوا بحرية الإنسان ، وأنه حر مختار ، وأن العباد خالقون أفعالهم مخترعون لها وأقروا هذه الحرية بالعقل والمنطق وفي هذا رد على الجبرية .

يقول القاضي عبد الجبار من المعتزلة لما تحدث عن خلق الأفعال : " وكـــان خلافهم فيها مع الجهمية المجبرة الذين ذهبوا إلى أن هذه الأفعال مخلوقـــة لله تعـــالى فينا لا تعلق لها بنا أصلاً ولا اكتساباً ولا إحداثاً وإنما نحن كالظروف لها ، وهم الجهمية أصحاب جهم بن صفوان " [٢] .

---

(١) سورة الملك الآية (١٥) .
(٢) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول (ص ٣٢٤) .

هذا وقد استند المعتزلة إلى أدلة عقلية ونقلية .

مـــن الأدلة العقلية : قالوا لو لم يكن العبد موجوداً لفعله بالاستقلال لـــزم أمور منها : بطلان المدح والذم على الأفعال إذ لا معنى للمدح والذم علـــى مـــا لـــيس يفعل للشخص ولا واقع بقدرته واختياره ، ومنها بطلان التكلـــيف والأوامر والنواهي ، إذ لا معنى للأمر بما لا يكون فعلاً للمأمور ولا يدخـــل تحـــت قدرته ، ومنها بطلان الثواب والعقاب ، لأنه لا معنى لإثابة العبد على ما كان يخلق المثيب ولا لعقابه على ما كان يخلق المعاقب

يقـــول القاضـــي عبد الجبار من المعتزلة : إن الله تعالى لا يكلف العباد ما لا يطيقون ولا يعملون ، بل يقدرهم على ما كلفهم ويعلمهم صفة مـــا كلفهم ويدلهم على ذلك ويبين لهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، وأنه إذا كلف المكلف وآتى بما كلف على الوجه الذي كلف فإنه يثيبه لا محالة [١] .

ويصور لنا إمام الحرمين رأي المعتزلة في فعل الإنسان الاختياري والضروري فيقول : " إن المعتزلة قالوا : إن العاقل يميز بين مقدوره وبين ما ليس بمقدوره ، ويدرك تفرقة بين حركاته الإرادية وألوانه التي لا اقتدار لـــه عليها ، ووجه الفصل بين القبيلين ، أنه يصادف مقدوره واقعاً به على حســـب قصـــوده ودواعـــيه ولا يقـــع مـــنه ما لا يقع على حسب انفكاكه وانصـــرافه فـــإذا صـــادف الشئ واقعاً على حسب المقصود والداعية لم يسترب في وقوعه به ثم لا يقع به إلا الحدوث فليكن العبد محدثاً لفعلـــه

---

[١] القاضي عبد الجبار : شرح الأصول (ص ١٣٣) .

ولـــو كان فعله غير واقع به لكان بمثابة لونه وسائر صفات الخارجة عن مقدوراته [١] .

إلـــى غير ذلك من الأدلة العقلية التي استند إليها المعتزلة في نسبه الفعل إلى الإنسان وأنه حر مختار ، كما استندوا في ذلك إلى الأدلة النقلية منها قوله تعالى ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله يعلمه ﴾ وقوله تعالى ﴿ والله يعلم ما تصفون ﴾ وقوله سبحانه ﴿ حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ .

ووجـــه دلالة هذه الآيات على أن فعل العبد بخلقه وإيجاده أن مادة العمـــل والفعـــل والأحـــداث مدلولها الإيجاد وقد أسندت إلى العباد فيكون الموجـــود هو العباد ، وقد يقال هذه الآيات بظاهرها تعارض الآيات الدالة علـــى عموم تعلق قدرة الله سبحانه وتعالى التي منها ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ فـــإذا حصـــل تعارض بين الآيات وجب الجمع بينها حيث أن الكل قطعي الثبوت وذلك بالتجوز في المسند أو في الإسناد بالنسبة للآيات التي تـــدل بظاهـــرها علـــى أن فعل العبد بخلقه وإيجاده وحينئذ لا تكون مثبتة لمدعي المعتزلة [٢] .

ولكـــن الـــذي دعـــا المعتزلة إلى القول بأن العبد خالق لأفعاله هو المحافظة على تصحيح التكليف وعدم الجبر المحض .

ولكـــن هل يعني اختيار الإنسان في أفعاله انفلاته من قبضة القدرة العليا وأنه حر مطلق في أعماله ، إن الواقع الذي يعيشه الإنسان برفـــض

---

[١] إمام الحرمين الجويني : الإرشاد إلى قواطع الأدلة (ص ٢٠١) .
[٢] الشيخ أبو دقيقة : مذكرات في علم التوحيد (ص ٢٠٧) .

هذه الفكرة بدليل التجربة العملية التي يعيشها الإنسان في هذه الحياة ، فإن الأمور لا تسير على هذا النحو من الاختيار المطلق الذي يأتي به الإنسان مـــا شـــاء من أفعاله ويدع ما شاء ، فكم أراد وحالت دون الحوائل ، وكم عزم ولم يستطع إمضاء عزمه .

إذاً فمن الخطأ منح الإنسان كل هذه القدرة وهذا الاختيار دون نظر إلى تصرف القدرة العليا وإرادتها ومشيئتها ، فكانت فكرة الكسب الذي دعا إليها علماء الأشاعرة .

خامساً : الأشاعرة :

لقــد أراد علماء الأشاعرة أن يسلكوا مسلكاً وسطاً ، فلم ينفوا قدرة الإنســـان كمـــا فعـــل الجبرية ولم يثبتوا الحرية المطلقة للإنسان كما فعل المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن العباد خالقون لأفعالهم فرأوا أن القول بالجبر يـــؤدي إلـــى إنكار ما يحسه الإنسان من التفرقة بين الحركة الاضطرارية والحركة الاختيارية مع أنه يحس بأن له مدخلاً في الثانية دون الأولى .

وكذلـــك رأوا بأن القول بخلق الإنسان لأفعاله يؤدي إلى أن يكون هـــناك شـــركاء خالقون يزاحمون الله تعالى ويشاركونه في أخص صفاته وهـــي القدرة على الخلق والاختراع ، وهذا ينافي مبدأ التوحيد الذي يقرر وحدانية الله تعالى في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله .

ولهذا فقد رأى الأشاعرة أن مذهب أهل السنة والجماعة هو التوسط والقـــول بـــأن الله تعالى خالق لجميع أفعال العباد لا خالق لها غيره وإنما العباد مكتسبون لأعمالهم .

ولذلــك فقــد كان الحل الذي ذهب إليه علماء الأشاعرة هو إدخال فكــرة الكسب ... يقول الإمام الغزالي : " وجب أن يطلب لهذا النمط من التســمية اسم آخر مخالف فطلب له اسم الكسب تيمناً بكتاب الله تعالى فإنه وجد إطلاق ذلك على أعمال العباد في القرآن الكريم " [١] من ذلك ما جاء في قوله تعالى ﴿ **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم** ﴾ [٢] .

ولذلــك يقــول القاضــي أبو بكر الباقلاني : " ومذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى هو الخالق وحده ولا يجوز أن يكون خالق سواه ، فإن جميع الموجودات من أشخاص العباد ، وأفعالهم ، وحركات الحيوانات قليلها وكثيرها ، حسنها وقبيحها ، خلق الله تعالى لا خالق لها غيره ؛ فهي منه خلق وللعباد كسب " [٣] .

فأهل السنة حين أثبتوا للإنسان أثراً فيما يكون عنه من أفعال وحين جعلــوا مع هذا لقدرة الله تعالى الأثر الأول والأخير في هذه الناحية حتى يوفقــوا بيــن تصــور الله القادر على كل شئ والذي يتصرف فينا وفي أعمالنا كما يريد وبين ما يحسه كل منا من أنه في إمكانه وقدرته أن يفعل أو يترك هذا الأمر دون ذاك [٤] .

فعلمــاء الأشــاعرة من أهل السنة ذهبوا إلى أن الله سبحانه خالق لأفعال العباد كلها سواء أكانت اضطرارية أو اختيارية لأنهم رأوا أن قدرة الله تعالى عامة شاملة لجميع المقدورات ، فقدرته تعالى عاملة شاملة لجميع

---

(١) الإمام الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد (ص ٤٩) .
(٢) سورة البقرة الآية (١٤١) .
(٣) الباقلاني : الإنصاف (ص ١٤٤) .
(٤) الإمام أبو المظفر الإسفراييني : التبصير في الدين (ص ١٠١) .

الموجـــودات لا تختص بموجود دون موجود من الممكنات ، لأنه ليس لها صـــلاحية مخصوصة مقصورة على وجه من وجوه الفعل دون وجه ، أما قـــدرة العبد التي لم تشمل جميع الموجودات فلا تصلح لإيجاد الجوهر أو الجســـم وكل عرض وإنما هي مقصورة على حركات مخصوصة ، وأما القدرة الإلهية فليس لها تلك الصلاحية وإنما صلاحيتها الوجود (١) .

ولذلك فقدرة الله تعالى تشمل كل الموجودات من السموات والأرض وما فيها من الملائكة والإنسان والحيوان ، وكل ما يصدر من الموجودات من أفعال تشمله القدرة الإلهية .

فـــالله تعـــالى هو الخالق والإنسان مكتسب ، وهنا نجد التفرقة بين الحـــركة الاضطرارية والاختيارية ، فالأولى كنبضات القلب والارتعاش ، والثانـــية كالقيام والقعود ، فما وقع بقدرة الإنسان واختياره هو الكسب وقد فســـره الأشـــعري بأنه عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد والمكتسب هو المقدور بالقدرة الحاصلة والحاصل تحت القدرة الحادثة (٢) .

هذا وقد استند علماء الأشاعرة إلى الأدلة النقلية والعقلية ،

فمـــن الأدلـــة النقلية : قوله تعالى ﴿ لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه ﴾ ، فقوله جل شأنه " خالق كل شئ " متناولاً لأفعال العباد ، وقوله تعالى ﴿ قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار ﴾ وقوله تعالى ﴿ وخلق كل شئ فقدره تقديراً ﴾ .

---

(١) الشهرستاني : نهاية الإقدام (ص ٧٦) .
(٢) الشهرستاني : الملل والنحل (١ / ٩٧) .

فهذه الآيات دلت على أن كل ما يتحقق ويوجد في الخارج إنمـــا بخلق الله تعالى ، وقال تعالى ﴿ أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾ .

أمـــا عــن الأدلـــة العقلية : فمنها أن فعل العبد ممكن وكل ممكن مقـــدور لله تعـــالى ، وكل ما كان مقدوراً لله تعالى لا يكون مقدوراً للعبد ففعـــل العـــبد لا يكون إلا مقدور لله تعالى كذا لو كان العبد موجداً لأفعاله لكـــان عالمـــاً بتفاصيلها لكن علمه بتفاصيلها باطل فبطل ما أدى إليه وهو كـــون العـــبد موجوداً لأفعاله وفي هذا رد على المعتزلة الذين ذهبوا إلى خلق العبد لأفعاله .

وإذاً لابـــد لنا من رأي في هذه المسألة ، وهي هل الإنسان مسير أو مخير ؟

نقول : إن الإنسان في هذه الحياة يعيش داخل دائرتين :

الدائـــرة الأولـــى : وفـــيها تنفذ إرادة الحق تبارك وتعالى ومشيئته الكونية والتـــي لا راد لهـــا إلا الحق جل شأنه ، وفيها جعل الحق تبارك وتعالى الإنسان يسير بحسبها وعلى مقتضاها ، لأن الإنسان فيها مستند إلى إحاطة إرادة الله تعالى بكل ما هو كائن وما هو سيكون فهي التي تقوده إلى إرادة ما يفعله أو يتصرف فيه .

الدائـــرة الثانـــية : وهي التي تنفذ فيها إرادة الله تعالى ومشيئته الشرعية وفـــيها جعـــل الله الإنسان مسئولاً عن أعماله في الدنيا محاسباً عليها في الآخرة ، فكونه مستحقاً لهذه المسئولية في نظر الشارع كما هو في الواقع وإلا لما عاقبنا الجناة في الدنيا ، لأن هذا العقاب ناتج عن ظلمهم لأنفسهم .

فما كان من إرادة الله تعالى ومشيئته الكونية فلا خروج لأحد عنها ولا علـيها وما كان من إرادته ومشيئته الشرعية ، فإن الله سبحانه وتعالى يطـاع ويعصـي ، ذلـك أنه لا تعارض بين مشيئة الله تعالى وبين إقبال الإنسـان على العمل ومسئوليته عنه وحريته في اختيار ما يشاء ، فحرية الإنسان وسيلة وليست غاية .

فـالحق جل شأنه هو الذي ييسر لنا العمل الذي نتجه إليه ، فعلاقة عمل الإنسان بقدرة الله تعالى هي كما جاء في قول الرسول ﷺ : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " .

فالرسول الكريم ﷺ يدعونا إلى العمل الذي نتجاوز فيه الجدل حول الجـبر والاختـيار ، لأنه لا مهرب من مواجهة قضية العمل سواء أكان الأمر جبراً أو اختياراً ، وإذا كان لا مفر من قضية العمل ، فأولى بالمرء أن يعمل باعتباره مسئولاً كما جاء في قول الرسول ﷺ " اعملوا " فعلم الله تعـالى لا يمـنع الإنسان من العمل ، وأن حرية الاختيار التي منحها الله للإنسان لا تتعارض مع علمه تعالى ومشيئته ، فشمول علمه تعالى وإرادته وقدرته لكل شئ يدفع الإنسان إلى العمل الذي يترتب عليه تيسيرات من الله تعـالى يمنحها للعبد [١] ، وربما هذا هو ما يوحي به قول الرسول ﷺ : " اعملوا فكلٍ ميسر لما خلق له " هذه هي المعالجة لهذه القضية معالجة تبدأ من حيث انتهى الغرور العقلي إلى متاهة الحيرة والغموض .

ولهذا نستطيع أن نقرر ونحن مطمئنين : أنه ليس صحيحاً ما يظنه

---

[١] الدكتور يحيى هاشم فرغل : أساسيات في العقيدة (ص ٨١) .

الـــبعض من أن علم الله السابق أو أن إيمان المسلم بعلم الله السابق بقضائه وقدره يمنع المسلمين من العمل ويحضهم على التواكل والكسل .

ومن هنا جاء الدعاء الذي أرشدنا إليه الرسول ﷺ أن نتجه به إلى الله فـــي حديث الاستخارة ، فعن جابر ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاســـتخارة فـــي الأمـــر كما يعلمنا السورة في القرآن ، يقول لنا : إذا هم أحدكـــم بالأمـــر فلـــيركع ركعتيـــن من غير الفريضة ثم يقل : اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم هذا الأمر " يسميه بعينه " خيراً لي في ديني ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري ، فأُقدره لـــي ويســـره لي وبارك لي فيه ، وإن كنت تعلمه شراً لي فاصرفه عني وأصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان في عاجل أمري وآجله "[١] .

وهكـــذا نلاحظ أن التاريخ يوضح لنا أن المسلمين الأوائل استجابوا لهدي رسول الله ﷺ في هذا الموضوع ، لأن العلم والعمل كان رائدهم في ذلـــك كله ، كما كان إيمانهم بعلم الله تعالى وتيسيراته وإيمانهم بقضاء الله وقدره جاعلين نصب أعينهم قول رسول الله ﷺ لأبي عباس ﷺ : يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يـــنفعوك بشـــئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ ، لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقـــــلام

---

[١] الإمام البخاري : صحيح البخاري : كتاب الدعاء باب الدعاء عند الاستخارة (٨ / ١٠٢)

وجفت الصحف " [١] .

وهــذا هــو ســر عظمــة الأمــة الإسلامية وسر ازدهارها وسر حضــارتها العظــيمة وهــو ما كان العمل بما عليه الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين .

الإنسان بين الهداية والإضلال

لمــا كان موضوع الهداية والإضلال له مساس كبير بواقع الإنسان لهــذا كــان من الواجب علينا أن ندرك واقع الإنسان بين الهدى والضلال على ضوء ما ترشدنا إليه آيات الكتاب الحكيم حتى لا نضل أو نضل .

يقول إمام الحرمين الجويني : إن كتاب الله العزيز اشتمل على أي دالة على تفرد الرب تعالى بهداية الخلق وإضلالهم وهي نصوص لإبطال مذاهــب مخالفــي أهل الحق [٢] ، فمما يعظم موقعه عليهم قوله تعالى : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ [٣] وقوــله تعالى ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ [٤] وقوله تعالى ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضــله يجعــل صدره ضيقاً حرجاً** ﴾ [٥] . وقوله ﷻ ﴿ **من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون** ﴾ [٦] .

---

[١] الإمام الترمذي : السنن ، كتاب صفة القيامة (٤ / ٦٦٧) .
[٢] إمام الحرمين الجويني : الإرشاد إلى قواطع الأدلة (ص ٢١٠) .
[٣] سورة يونس الآية (٢٥) .
[٤] سورة القصص الآية (٥٦) .
[٥] سورة الأنعام الآية (١٢٥) .
[٦] سورة الأعراف الآية (١٧٨) .

يقـــول إمـــام الحرميـــن الجويني : " اعلم أن الهدى في هذه الآي لا يـــتجه حملـــه إلا على خلق الإيمان وكذلك لا يتجه حمل الإضلال على غير خلق الضلال " [١] .

كذلك قد ترد كلمة الهداية ويراد بها الدعوة كما جاء في قوله تعالى ﴿ **وإنـــك لتهدي إلى صراط مستقيم** ﴾ [٢] وإنك تدعو كما ترد ويراد بها إرشـــاد المؤمنيـــن المفضية إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها يوم القيامة [٣] قال ﷻ ﴿ **فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم** ﴾ [٤] وقال تعالى في حق الكفار ﴿ **فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ [٥] .

يقـــول الجوينـــي معناه اسلكوا لهم إليها والمعنى بقوله تعالى ﴿ **وأما ثمود فهديناهم** ﴾ [٦] يقول الجويني : إنا دعوناهم فاستحبوا العمى على ما دعوا إلـــيه من الهدى ، ولذلك يرى الإمام الطبري أن معنى قول القرآن ﴿ **فإن الله يضـــل مـــن يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ [٧] أن الله يخذل من يشاء عن الإيمـــان فيضـــله عن سبيل الرشد ويوفّق من يشاء للإيمان وللهداية إلى هذا السبيل .

وللإمام ابن القيم تقسيم دقيق لمراتب الهدى قد ذكره في كتابه شفاء العليل فقال : أما مراتب الهدى فأربعة :

---

[١] الجويني : الإرشاد إلى قواطع الأدلة من الاعتقاد (ص ٢١١) .
[٢] سورة الشورى الآية (٥٢) .
[٣] الإمام الجويني : الإرشاد (ص ٢١١) .
[٤] سورة محمد الآية (٤ ، ٥) .
[٥] سورة الصافات الآية (٢٣) .
[٦] سورة فصلت الآية (١٧) .
[٧] سورة فاطر الآية (٨) .

المرتـــبة الأولـــى : الهــدي العام وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها وهذا أعم مراتبها .

المرتبة الثانية : الهدي بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده ، وهذا خاص بالمكلفين ، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى وأعم من الثالثة .

المرتـــبة الثالـــثة : الهداية المستلزمة للاهتداء وهي هداية التوفيق ومشيئة الله تعالى لعبده ، الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد وهذه الهداية لا يقدر عليها إلا الله سبحانه .

المرتبة الرابعة : الهداية يوم الميعاد إلى طريق الجنة أو النار[١].

فالمرتـــبة الأولى هنا هداية تعليم وإرشاد كما جاء في قوله سبحانه ﴿ **ربـــنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى** ﴾ [٢] وقوله تعالى ﴿ **والذي قدر فهدى** ﴾ [٣] .

- والمرتبة الثانية من مراتب الهدي : هداية التكليف كما جاء في قوله تعـــالى ﴿ **وأمـــا ثمـــود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ [٤] أي فهداهـــم إلى دينه وشريعته في كتبه المنزلة ، ولكنهم رفضوا وأعرضوا ، فهذه الهداية هي التي جعلها الله تعالى لأهل دعوته من أنبيائه ورسله فقال سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام :

---

[١] الإمام ابن قيم الجوزية : شفاء العليل (ص ٦٥) دار المعرفة بيروت لبنان .
[٢] سورة طه الآية (٥٠) .
[٣] سورة الأعلى الآية (٣) .
[٤] سورة فصلت الآية (١٧) .

﴿ **وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ﴾ [١] والصراط المستقيم هو الإسلام ، فـالله سبحانه وتعالى أثبت لنبيه ﷺ الهداية ، وخص سبحانه ذاته المقدسة بهداية الإلهام والتوفيق في قوله تعالى ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ [٢] .

فالهدايــة التــي خص الله تعالى بها أنبيائه ورسله هي التي جعلها سـبحانه وتعالى حجته على خلقه حتى لا يعاقب أحد إلا بعد إقامتها عليه ولذلــك قال سبحانه وتعالى ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ [٣] . وقــال سبحانه ﴿ رسلاً **مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ [٤] .

وأما المرتبة الثالثة : فهي الهداية المستلزمة للاهتداء ، وهي هداية التوفـيق والإلهام ، فالله سبحانه وتعالى هو الهادي كما جاء في قوله تعالى ﴿ **ومن يهدي الله فهو المهتدي** ﴾ [٥]، وكما جاء في قوله سبحانه وتعالى ﴿ **إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل** ﴾ [٦] وقوله سبحانه ﴿ **مـن يضـلل الله فلا هادي له** ﴾ [٧] وقوله تعالى ﴿ **أفرءيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾ [٨] .

---

[١] سورة الشورى الآية (٥٢) .
[٢] سورة يونس الآية (١٥) .
[٣] سورة الإسراء الآية (١٥) .
[٤] سورة النساء الآية (١٦٥) .
[٥] سورة الإسراء الآية (٩٧) .
[٦] سورة النحل الآية (٣٧) .
[٧] سورة الأعراف الآية (١٨٦) .
[٨] سورة الجاثية الآية (٢٣) .

وأما المرتبة الرابعة من مراتب الهداية : وهي الهداية إلى الجنة أو النار يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ (١) . وقوله تعالى ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ (٢) .

فالله سبحانه وتعالى قد أقام حجته على خلقه بما أرسل إليهم من الأنبياء والمرسلين من أجل تبليغهم دعوته ، وقد جعل سبحانه وتعالى في ذلك هدايته لخلقه لما هو خير لهم في دنياهم وأخراهم ، وهدايته هذه هي هداية التكليف التي يعيش الإنسان من خلالها قبولها أو رفضها بين الهدى والضلال . والله سبحانه وتعالى هو الذي يملك الهدى وهو الذي يعطيه لمن يأخذ بأسبابه ولمن يبدأ السير في طريقه عند ذلك يمن الله عليه بالهداية الحقيقية وباليقين التام وذلك كما جاء في قوله تعالى ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا** ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ **يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام** ﴾ (٤) وقوله ﷻ ﴿ **ويهدي إليه من أناب** ﴾ (٥) وقوله ﷻ ﴿ **هدى وذكرى لأولي الألباب** ﴾ (٦) .

ولهذا فقد أدرك أئمتنا السابقون رضوان الله عليهم أجمعين أن الهداية منحة من الله سبحانه بما يقذفه الله ﷻ في القلب من نور الإيمان

---

(١) سورة محمد الآية (٤ – ٦) .
(٢) سورة الصافات الآية (٢١ – ٢٣) .
(٣) سورة العنكبوت الآية (٦٩) .
(٤) سورة المائدة الآية (١٦) .
(٥) سورة الرعد الآية (٢٧) .
(٦) سورة غافر الآية (٥٤) .

والتصـــديق ، رأى ذلــك وقرره الإمام أبو حنيفة كما وجده وجربه الإمام الغزالي وغيرهما من أئمة الهدى والرشاد [١] .

أما أولئك الذين يأخذون بأسباب الضلال فإن الهدى محجوب عنهم لقولــه تعالى ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [١] وقوله تعالى ﴿ **والله لا يهــدي القــوم الفاسقين** ﴾ [٢] وقولــه سبحانه ﴿ **والله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ [٣] .

وهكذا نلاحظ أن أسباب الهدى بينة ، وأسباب الضلال بينة ، أسباب الهدى تكمن في توجه الرغبة إلى الهداية والإخلاص في طلبها ، كما تكمن في تجرد النفس والقلب من العناد والهوى .

أمــا أســباب الضلال فتكمن في عكس ذلك مما سماه الحق تبارك وتعــالى ظلماً وفسقاً وكفراً وكذباً وإسرافاً ، فالهدى يعطيه الله تعالى لمن يســتحق ممــن يأخذون بأسبابه أما الاستقلال عن الله فمن أسباب الضلال والهلاك .

---

(١) الدكتور يحيى هاشم : أساسيات في العقيدة (ص ٨٥) .
(١) سورة الصف الآية (٧) .
(٢) سورة التوبة الآية (٢٤) .
(٣) سورة التوبة الآية (٣٧) .

الوحي

إن من أساسيات علم العقيدة الإسلامية الإيمان بالملائكة والرسل والكتب ، فلا يكون الإنسان مؤمناً إلا بالإيمان بها ، والملائكة رسل الله تعالى إلى الأنبياء ، والأنبياء والرسل رسل الله إلى الناس ، والكتب هي الرسالة التي حملها الملك إلى الرسول ونقلها الرسول إلى الناس متضمنة أوامر الله تعالى ونهيه وسائر التكاليف الشرعية كما يبلغوها عن طريق وحي الله تعالى إليهم ، وهو ممكن عقلاً لأن العقول السليمة لا تجد مانعاً من أن الله تعالى يصطفي أفراداً تقوى أرواحهم لتلقي الوحي ، فهو إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بالأحكام الشرعية كي يبلغوها الناس .

وعلى هذا فالوحي لغة : الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوحيه إليه بحيث يخفى على غيره ، وكلمة الوحي مصدر ومادتها تدل على معنيين أصليين : أحدهما الخفاء ، والثاني السرعة ، ولذلك قيل في معنى الوحي: أنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه ويخفى على غيْره ، يقال : وحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحي مصدر من ذلك ، والمكتوب والرسالة وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه ثم غلب فيما يلقى إلى الأنبياء من قبل الله ﷻ ، وقيل الوحي : إعلام في خفاء ويطلق ويراد به الموحى [١]

وبناء على هذا المعنى اللغوي ، جاء وحي الله تعالى إلى العديد من مخلوقاته من ذلك : الإلهام الفطري للإنسان كما جاء في وحي الله تعالى

---

(١) الإمام محمد عبده : رسالة التوحيد (ص ٨٣) .

إلى أم موسى عليه السلام : قال تعالى ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ (١).

كما يشمل الإلهام الغريزي للحيوان كوحي الله تعالى إلى النحل ، قال تعالى ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾ (٢) .

كما يدل على الإشارة والإيماء كما في قوله تعالى ﴿ **فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً** ﴾ (٣) .

كما يشتمل على وسوسة الشيطان للإنسان كما في قوله تعالى ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ (٤) .

كما يتضمن وحي الله تعالى إلى ملائكته بأمر من الأمور قال تعالى ﴿ **إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ (٥) هذا بالإضافة إلى أنه يدل على الكلمة الإلهية التي يلقيها الله إلى الأنبياء والمرسلين كما في قوله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو**

---

(١) سورة القصص الآية (٧) .
(٢) سورة النحل الآية (٦٨ ٩ .
(٣) سورة مريم الآية (١١) .
(٤) سورة الأنعام الآية (١٢١) .
(٥) سورة الأنفال الآية (١٢) .

مـــن وراء حجـــاب أو يرســـل رســـولاً فيوحـــي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم ﴾ [١] .

هـــذا عـــن الـــتعريف اللغـــوي ودلالته أما عن التعريف الشرعي للوحي : فهو إعلام الله ﷻ رسولاً من رسله أو نبياً من أنبيائه ما يشاء من كلام أو معنى إعلاماً يفيد العلم اليقيني بما أعلمه الله به .

أمـــا الإمام محمد عبده فيقول : أما نحن فنعرفه على شرطنا ، بأنه عـــرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله تعالى بواسطة أو بغـــير واسطة ، والأول بصوت يتمثل سمعه أو بغير صوت ... ويفرق بيـــنه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب علـــى غـــير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور [٢] .

ولهـــذا فـــإن وحـــي الله تعالى إلى أنبيائه أمر مقرر ، فهو سبحانه وتعالى قادر على خلق الملائكة واصطفاء الرسل وشرع الأحكام ، والعقل لا يمـــنع ذلك بعد أن آمن بوجوده تعالى وقدرته وعلمه وإرادته وحكمته ، فهـــو سبحانه وتعالى قيوم السموات والأرض لا يعزب عن علمه شئ في الأرض ولا فـــي السماء ، ومن كان هذا شأنه فهو قادر على أن ينقل إليهم شرعه بطريق الوحي كي يبلغوه إلى من أرسلوا إليهم .

يقول الشيخ محمد عبده : أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان " الوحي " وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله

---

[١] سورة الشورى الآية (٥١) .
[٢] الإمام محمد عبده : رسالة التوحيد (ص ٨٤) .

بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يــريد أن يــدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم .. نعم يوجد في كل أمة وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم إلــى ما وراء سواحل اليقين فيسقطون في غمرات من الشك في كل ما لم يقــع تحت حواسهم الخمس ، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها – كمــا ســبقت الإشارة إليه – فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى مــن مراتــب أنــواع أخرى من الحيوان ، فينسون العقل وشئونه وسره ومكــنونه ، ويجدون في ذلك لذة الإطلاق من قيود الأوامر والنواهي ، بل عن محابس الحشمة التي تضمهم إلى التزام ما يليق وتحجزهم عن مقارفة ما لا يليق (١) .

مظاهر الوحــــي :

إن الوحي الذي تشرق به المعرفة على قلوب الأنبياء والمرسلين لم يــأت على صورة واحدة وإنما أتى على مظاهر ومراتب مختلفة أهمها :
الــرؤيا الصــادقة : فقد كانت الرؤيا الصالحة أول مطالع الوحي في حياة ســيدنا محمــد ﷺ صاحب الرسالة العظمى حيث كان ﷺ يرى الرؤيا في منامه فتقع كما رأى كفلق الصبح .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : " أول ما بدئ به ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح " (٢) .

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٥) .
(٢) الإمام البخاري : شرح صحيح البخاري (١ / ٤٥) .

هــذا وقــد حــدث ذلك مع أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يقول سبحانه وتعالى ﴿ **فلمـــا بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظــر مـــاذا تـــرى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصـــابرين . فلمـــا أســـلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ (١) .

فالـــرؤيا الصـــالحة التي يراها الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام وحي يجب اتباعه وصدق يجب العمل به .

كمـــا يكون إلهاماً ، وهو أن يلقي في قلب النبي ما أراده الله تعالى مـــن وراء حجاب كما حدث لسيدنا موسى عليه السلام ، يقول تعالى ﴿ **ولما جاء موســـى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظــر إلـــى الجـــبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعلـــه دكـــاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنيـــن** ﴾ (٢) ، ومـــن هـــذا النوع أيضاً ما حدث لنبينا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج في اليقظة بدون واسطة .

كمـــا يكـــون الوحـــي بواســـطة ملـــك الوحي ، وهو أمين الوحي جبريل عليه السلام ، ويأتي ذلك على صور منها : مثل صلصلة الجرس لقوله ﷺ لمـــن ســـأله : كـــيف يأتيك الوحي ؟ قال ﷺ للسائل : " أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس " (٣) .

---

(١) سورة الصافات الآيات (١٠٢ ـ ١٠٥) .
(٢) سورة الأعراف الآية (١٤٣) .
(٣) الإمام البخاري شرح صحيح البخاري (١ / ٤٤) .

كمـــا يأتي الوحي أحياناً في صورة بشر يدل على ذلك ما جاء في صـــحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليَّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قاله وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول " .

فالوحي اتصال بين الله تعالى الخلاق العليم والقادر العظيم وبين المصطفين مـــن خلقـــه وعـــبادة للنبوة والرسالة ، بيد أن تكليم الله تعالى لأنبيائه أمر لا ندرك كنهه وليس على النحو الذي نألفه بين المتخاطبين من مشافهة بل كمـــا قال الله تعالى ﴿ **ومـــا كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجـــاب أو يرســـل رســـوله فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ [١] .

---

[١] سورة الشورى الآية (٥١ ، ٥٢) .

الإيمان بالكتب

مــن أساسيات العقيدة الإيمان بالكتب والرسل ، والرسل هم الذين يقتبسون أنوار الوحي من الملائكة ، ومنه الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء ، ذلك أن مستلزم الإيمان بالرسل الإيمان بالكتب التي تلقاها هؤلاء المرســلون مــن رب العالميــن كما جاء في قوله تعالى ﴿ **كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾ [١] .

إن الإيمان والتصديق بكتب الله المنزلة أمر لابد منه لتحقيق الإيمان بــالله تعــالى والفوز بالنجاة ، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل على رسله كتباً يجب الإيمان بها والتصديق بأنها منزلة من عند الله تعالى قــال ســبحانه وتعالى ﴿ **ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للــناس وأنــزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام** ﴾ [٢] .

ولعل الحكمة في تعدد الكتب السماوية وتعاقبها حتى ختمت بالقرآن الكريم الذي نزل مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فكل كتاب منها قبل القرآن كان يناسب مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية كما اشتملت هــذه الكتب على ما أراد الله تبليغه للبشر وقد جاءت متفاوتة في الشمول ، وكان القرآن الكريم أشملها وأعمها ويلزم الإيمان به الإيمان بها ، إلا أن

---

[١] سورة البقرة الآية (٢٨٥) .
[٢] سورة آل عمران الآيات (١ ــ ٤) .

هــذه الكتــب الســابقة عالجت أمور معينة في زمان معين ، كما أصابها التحريف والتبديل والنسخ ما جعل الضرورة تقتضي بتعاقب نزولها ، حتى جـــاء القرآن الكريم المنزل على محمد ﷺ المعجزة الكبرى المتعبد بتلاوته المكتوب في المصحف المنقول إلينا بين دفتي المصحف تواتراً ، فكان هو الكلمة الأخيرة والمعجزة الفاصلة والحجة القائمة على البشرية إلى أن تقوم الساعة .

وقــد جاء في القرآن الكريم ذكر الكتب التي يجب الإيمان بها لأن القرآن الكريم وحده الكتاب السماوي الصحيح في أيدي الناس اليوم ، ولذ فهــو المـــرجع الحـــق الذي يحكم على ما في هذه الكتب التي بقيت بأيدي اليهود والنصارى ، فهو مصدق لما يكون فيها من حق ، مبيناً ما فيها من الـــتحريف الذي أصابها مظهراً وجه الحق فيه يقول تعالى ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه** ﴾ [١] .

ذلـــك أن القرآن الكريم قد تكفل الله بحفظه وعنايته ورعايته فظل محفوظـــاً بحفـــظ الله له سالماً لم تناله يد عابس من تحريف أو تبديل قال تعالى ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [٢] .

والقرآن الكريم هو الحاكم على الكتب السابقة التي يجب الإيمان بها فقد اشتمل على مقاصدها وغاياتها وجاء بلب الأمر فيها فهو الميزان الذي يعرف به صحيحها من الذي حُرف منها وغيره ، وأهم هذه الكتـــــب :

---

[١] سورة المائدة الآية (٤٨) .
[٢] سورة الحجر الآية (٩) .

١ – **صحف إبراهيم :**

أما صحف إبراهيم فقد أخبرنا الله تعالى بما جاء في صحف إبراهيم يقـول تعـالى ﴿ **قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى** ﴾ [١] وقوله تعالى ﴿ **أم لم ينبأ بما في صحف موسى . وإبراهيم الذي وفى** ﴾ [٢] .

٢ – **الزبـــور :**

لقـد ذكـر زبور داود في آيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿ **وآتيـنا داود زبـوراً** ﴾ [٣] ، كمـا خبرنا القرآن الكريم مما كتب في الـزبور يقـول تعالى ﴿ **ولقـد كتبنا في الزبور من بعد الذكر إن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ [٤] .

٣ – **التـــوراة :**

لقـد أخبرنا القرآن الكريم أن التوراة منزلة من عند الله فيها هدى للـناس وفـيها حكـم الله تعالى قال تعالى ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونـور** ﴾ [٥] ، وقال تعالى ﴿ **وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله** ﴾ [٦] .

---

[١] سورة الأعلى الآيات (١٤ – ١٩) .
[٢] سورة النجم الآية (٣٦ ، ٣٧) .
[٣] سورة النساء الآية (١٦٣) .
[٤] سورة الأنبياء الآية (١٠٥) .
[٥] سورة المائدة الآية (٤٤) .
[٦] سورة المائدة الآية (٤٣) .

كما أخبرنا القرآن الكريم أن في التوراة بشارة بمحمد ﷺ قال تعالى ﴿ **الذيـــن يتـــبعون الرســـول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة** ﴾ [١] إلى غير ذلك من الآيات .

٤ - الإنجـــيل :

لقد جاء ذكر الإنجيل في آيات من القرآن الكريم فيه هدى ونور ، قال تعالى ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من الـــتوراة وآتيـــناه الإنجيل فيه هدى ونور** ﴾ [٢] ، وقال تعالى ﴿ **وليحكم أهـــل الإنجـــيل بما أنزل الله** ﴾ [٣] إلى غير ذلك من آيات القرآن الكريم الذي أخبرت بهذه الكتب .

لـــذا يجب الإيمان بهذه الكتب مجتمعة لا بواحد منها دون الآخر ، كمـــا يجـــب الإيمان بكل ما جاء فيها لا ببعض ما جاء فيها دون البعض الآخـــر ، لذا يتطلب الإيمان بكل هذه الكتب وبكل ما جاء فيها لأنها وحي الله ﷻ ، قال تعالى ﴿ **ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم مـــن ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جـــزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ [٤] .

---

[١] سورة الأعراف الآية (١٥٧) .
[٢] سورة المائدة الآية (٤٦) .
[٣] سورة المائدة الآية (٤٧) .
[٤] سورة البقرة الآية (٨٥) .

والقرآن الكريم هو المصدر الأساسي الذي يحكم ما في هذه الكتب التي بقيت بأيدي اليهود والنصارى ، فهو المصدق لما يكون فيها من حق وهو الكاشف عن التحريف والتبديل والتغيير الذي أصابها .. يقول القرآن الكريم عن اليهود ﴿ **يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾ [١] ، ويقول عن النصارى ﴿ **ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به** ﴾ [٢] .

وقد حرف هؤلاء الكتب المنزلة قبل القرآن الكريم حيث قد تعدد نسخها وتأليفها فقد جاء كل نسخة منها منسوبة إلى أشخاص ، فهناك مثلاً توراة يونانية وأخرى عبرانية وثالثة سامرية ورابعة كتبها عزرا [٣] ، وقد نص القرآن الكريم عليهم هذا الصنيع في قوله تعالى ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾ [٤] .

ولهذا نجد في هذه الكتب المحرفة شناعات وقبائح منسوبة إلى أنبياء الله تعالى ، بل نجد في هذه الكتب المحرفة سوء الأدب في الحديث عن الله تعالى ، ولهذا فقد واجه القرآن الكريم أهل الكتاب بما وقعوا فيه من انحرافات وضلالات ، يقول سبحانه ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق** ﴾ [٥] .

---

(١) سورة
(٢) سورة
(٣) إمام الحرمين الجويني : شفاء الغليل (ص ١١) تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا . نشر مكتبة الكليات الأزهرية .
(٤) سورة البقرة الآية (٧٩) .
(٥) سورة النساء الآية (١٧١) .

ويقـــول تعـــالى ﴿ **وقالـــت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قـــاتلهم الله أنـــى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ [١] ، وقوله تعالى ﴿ **... وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ [٢] .

ومجمـــل القول أن هذه الانحرافات والضلالات دليل على تحريف كتـــبهم وتـــبديلها وتغيـــيرها بحيـــث صارت مسايرة لأهوائهم معبرة عن أطماعهم وبغضهم للبشر وللشعوب .

يقـــول ابـــن قيم الجوزية : وقولهم إن نسخ التوراة متفقة في شرق الأرض وغـــربها كذب ظاهر ، فهذه التوراة التي بأيدي النصارى تخالف التوراة التي بأيدي اليهود ، والتي بأيدي السامرة تخالف هذه وهذه ، وهذا نسخ الإنجيل يخالف بعضه بعضاً ويناقضه .. فدعواهم : أن نسخ التوراة والإنجـــيل متفقة شرقاً وغرباً من البهت والكذب الذي يروجونه على أشباه الأنعـــام ، وإن هـــذه التوراة التي بأيدي اليهود فيها من الزيادة والتحريف والنقصان ما لا يخفى على الراسخين في العلم ، وهم يعلمون قطعاً أن ذلك لـــيس في التوراة التي أنزلها الله على موسى وأن هذه الأناجيل التي بأيدي النصارى فيها من الزيادة والتحريف والنقصان ما لا يخفى على الراسخين

---

[١] سورة التوبة الآية (٣٠ ، ٣١) .
[٢] سورة البقرة جزء الآية (٦١) .

في العلم ، وهم يعلمون قطعاً أن ذلك ليس في الإنجيل الذي أنزله الله على المسيح وكيف يكون في التوراة قصة موسى ودفنه في أرض موآب ؟ وكيف يكون في الإنجيل الذي أنزل على المسيح " قصة صلبه " وما جرى له وأنه أصابه كذا وكذا وصلب يوم كذا وكذا ، وأنه قام من القبر بعد ثلاث وغير ذلك مما هو من كلام شيوخ النصارى ، وغايته أن يكون من كلام الحواريين خلطوه بالإنجيل وسموا الجميع إنجيلاً ، وكذلك كانت الأناجيل عندهم أربعة يخالف بعضها بعضاً .

ومن بهتهم وكذبهم قولهم : أن التوراة التي بأيديهم وأيدي اليهود والسامرة سواء والنصارى لا يقرون أن الإنجيل منزل من عند الله على المسيح وأنه كلام الله ، بل كل فرقهم مجمعون على أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة ولا يعرفون عن الإنجيل غير هذا (١) . وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على التحريف والتبديل في هذه الكتب بالزيادة والنقصان والكذب والبهتان الذي سجله هؤلاء الخارجين على شريعته المحاربين لرسله .

ومن هنا ندرك أن القرآن الكريم هو وحده الكتاب الصحيح في أيدي الناس اليوم ، وأما تسمية هذه الكتب المحرفة بالسماوية فإنما هو باعتبار أصلها قبل أن يصيبها التبديل والتحريف والزيادة والنقص ، ولما كان حال هذه الكتب على ما فيها من الضلالات والمفتريات والشبهات

---

(١) ابن قيم الجوزية : هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (ص ١٠٣) تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ نشر المكتبة القيمة .

الـــباطلة التي أوردها القرآن الكريم تسجيلاً لمواقف هؤلاء الخارجين عن شريعته ودحضاً لمزاعمهم الباطلة حتى لا ينخدع أحد ، لهذا وجب التوجه إلـــى القرآن الكريم لأنه الكتاب الحق جاء من عند الله الحق ﴿ **والله يقول الحق وهو يهدي إلى سواء السبيل** ﴾ [١] .

---

[١] سورة الأحزاب الآية (٤) .

النبـــوة

لقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وكرمه بالعقل وسخر له كل ما في هذا الكون الفسيح .

وقد أجهد العلماء والحكماء أنفسهم في البحث عن الحكمة التي من أجلهـا خلق الإنسان واختلفوا فيما بينهم اختلافاً كبيراً ، ولكن الحق تبارك وتعالى بين لهم الحكمة من خلق الإنسان بقوله ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ .

فهذه الآية الكريمة قد بينت أن الله تعالى لم يخلق الإنسان عبثاً ولم يـتركه هملاً ، بل قد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعله كائناً مكلفاً مسئولاً لغاية سامية هي عبادة الله تعالى .

ولما كان الإنسان لا يعرف طرق العبادة بواسطة عقله القاصر فقد أرسـل الله تبارك وتعالى الرسل والأنبياء ليعرفوا الإنسان طرق عبادة الله تعالى ويبينوا الشرائع والتكاليف التي كلف الله تعالى بها الإنسان وليكونوا مبشرين ومنذرين .

فما هو معنى النبي والرسول ؟ وما هو معنى النبوة والرسالة ؟

يقـول صـاحب المقاصـد الإمام سعد الدين التفتازاني : هو كون الإنسـان مـبعوثاً من الحق إلى الخلق ، فإن كان النبي مأخوذاً من النبوة وهـو الارتفاع ، لعلو شأنه واشتهار مكانه ، أو من النبي بمعنى الطريق ليكون وسيلة إلى الحق تعالى ، فالنبوة على الأصل كالأبوة ، وإن كانت

من النبأ وهو الخبر لإنبائه عن الله تعالى فعلى قلب الهمزة واو ثم الإدغام كالمروة [١] .

وعلى هذا فالنبي إنسان حر من بني آدم أوحى الله إليه بشرع سواء أمر بتبليغه أم لا .

أما الرسول هو إنسان حر من بني آدم أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه .

وعلـــى هذا البيان يكون النبي أعم من الرسول ، وجهة العموم هنا هـــي أن النبي يلاحظ فيه اختصاص العبد بسماع الوحي من الله فقط سواء أمر بالتبليغ أو لم يؤمر ، وقيل أن النبي أعم من الرسول لكن جهة العموم غير ما ذكر وهي أن النبي لا يشترط أن يكون معه كتاب أو شريعة جديدة أمـــا الرســـول فيشـــترط أن يكون معه كتاب أو شريعة جديدة وقيل أنهما متساويات ، فكل نبي رسول وكل رسول نبي ولا فرق بينهما إلا من حيث الوصـــف العنوانـــي ، فمن حيث قال الله له : إنا أرسلناك ، قيل له رسول ومن حيث قوله أنبأ الخلق بالأحكام ، قيل له نبي .

وقـــد ذكـــر الإمام سعد الدين التفازاني أن الرسول يخص بمن له شـــريعة وكـــتاب فيكون أخص من النبي ، واعترض بما ورد في الحديث الشريف من زيادة عدد الرسل على عدد الكتب ، فقيل هو من له كتاب أو نسخ لبعض أحكام الشريعة السابقة والنبي قد يخلو من ذلك كيوشع عليه السلام [٢]

---

[١] الإمام سعد الدين التفازاني : شرح المقاصد (٢ / ١٢٨) .
[٢] المصدر السابق (٢ / ١٢٨) .

وعلـــى هـــذا فالفـــرق بين الرسول والنبي هو اشتراط التبليغ في الرسول دون النبي .

فمعظـــم العلماء يرون في الفرق بينهما هو أن الرسول هو المرسل بشـــرع جديد أو بنسخ لبعض أحكام شريعة كانت قبله والنبي هو المبعوث لـــتقرير شـــريعة رسول قبله كيوشع عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يقررون شريعة موسى عليه السلام (١) .

أمـــا الرسالة فهي اختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي أمر بتبليغه .

وعلـــى هـــذا فالرسالة والنبوة والبعثة هي إرسال الله تعالى الرسل والأنبياء إلى المكلفين من الثقلين ليبلغوهم عن الله تعالى شرائعه التي تؤدي إلى صلاح حالهم في المعاش والمعاد .

فهـــذه النـــبوة هي قول الله تعالى لمن اختاره من عباده ، أرسلناك وبعثناك وبلغ عنا ، وقد أجمع علماء الأشاعرة على أنها موهبة من الله عز وجل لمن اصطفاه لتبليغ الشرائع ، فحقيقة النبوة أنها إخبار بالشرائع عن الله عز وجل

والنبوة بهذا المعنى قال بوجوبها على الله تعالى المعتزلة والفلاسفة وقال بجوازها أهل السنة وهو القول المختار ، فالبعثة لطف من الله تعالى ورحمـــة للعالمين لما فيها من حكم ومصالح لا تحصى منها معاضة العقل فيما يستقل بمعرفته مثل وجود الباري وعلمه وقدرته لئلا يكون للناس على

---

(١) الدكتور محي الدين الصافي : النبوات والسمعيات (ص ٦) دار الطباعة المحمدية بالأزهر . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م .

الله حجة بعد الرسل ، ومنها استفادة الحكم من النبي فيما لا يستقل به العقل مـــثل الكلام والرؤية والمعاد الجسماني ، ومنها إزالة الخوف الحاصل عند الإتـــيان بالحسنات لكونه تصرفاً في ملك الله بغير إذنه وعند تركها لكونه ترك طاعة [١] .

فلهــذا قـــال المعـــتزلة بوجوب البعثة على الله تعالى لأنها لطف وصــــلاح أحـــوال العباد عندهم ، فعلى قاعدة وجوب الأصلح عندهم قالوا بوجـــوب اللطـــف عليه تعالى ، وهو فعل من الله يقرب العباد من الطاعة ويبعدهم عن المعصية .

فـــالوجوب الـــذي زعمه المعتزلة يقصدون به أن الله تعالى يفعل الإرسال ولا يجوز أن يتركه لأن تركه عبث لأنه ترك للأصلح فهذا نقص والـــنقص محال في حقه تعالى عقلاً فترك الإرسال محال فأصبح الإرسال عندهم واجباً .

أما الفلاسفة فقالوا بلزومها في حفظ نظام العالم ، وكون بعثة النبي سبباً للخير العام المستحيل في تركه في الحكمة والعناية الإلهية [٢] .

وبـــناء على قول الفلاسفة باللزوم قالوا إن النبي هو من اجتمع فيه خواص ثلاث كما أشار إلى ذلك صاحب المواقف .

أحدها : أن يكون له إطلاع على المغيبات .... الخ .

ثانيها : أن يظهر منه الأفعال الخارقة للعادة .... الخ .

---

(١) راجع إن شئت : شرح المقاصد للتفتازاني (٢ / ١٢٨) .

(٢) شرح المقاصد (٢ / ١٢٨) .

ثالثها : أن يرى الملائكة مصورة ويسمع كلامهم وحياً [١] .

وعلـــى هذا لا يمكن أن نأخذ برأي الفلاسفة على سبيل التسليم بل هـــناك انتقادات توجه إلى هذه الخواص التي اشترطها الفلاسفة . أهمها أن الرسل لا يكون منهم إطلاع على جميع المغيبات .

ولذلـــك يقـــول الرسول ﷺ فيما يحكيه القرآن الكريم : ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾ [٢] .

فهـــذا الاطلاع لا يكون إلا بإذن الله تعالى كما جاء في قوله تعالى ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول** ﴾ [٣] .

كما أن الفلاسفة ذهبوا إلى أن النفس عند صفائها تطلع على الأمور الغيبـــية وهذا ربما يحصل لغير الرسول عند تصفية النفس وتجردها عن علائق المادة ويلزم عليه أن لا يتميز الرسول عن غيره فيختلط الأمر على الناس ويلتبس عليهم .

بالإضافة إلى ذلك فإن قول الفلاسفة يربط النبوة بالخيال ، فكان ما يراه النبي من قبيل الخيال لا من قبيل الرؤية الواقعية وفي هذا ما يضعف من شأن النبوة ، وفيها ما يخالف النصوص القرآنية من نزول جبريل على النبي ﷺ ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبـــك**

---

[١] **الإيجي : المواقف (ص ٣٣٧) .**
[٢] **سورة الأعراف الآية (١٨٨) .**
[٣] **سورة الجن الآية (٢٦ ، ٢٧) .**

لتكون من المنذرين ﴾ [١] .

وقولـــه تعالى ﴿ **قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين** ﴾ [٢] .

فـــالحق في ذلك هو أن الرسالة لا تكون إلا لمستحق ممن أهله الله لهـــا قـــبل الرسالة من سلوك قويم وأخلاق فاضلة ، فاجتباؤه تعالى لبعض عباده متعلق بمشيئته قال تعالى ﴿ **الله يجتبي إليه من يشاء** ﴾ [٣] ، وقوله تعالى ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ [٤] .

فالحق أن النبوة رحمة يختص بها الله من يشاء من عباده .

---

[١] سورة الشعراء الآية (١٩٣ ، ١٩٤) .
[٢] سورة النحل الآية (١٠٢) .
[٣] سورة الشورى الآية (١٣) .
[٤] سورة الأنعام الآية (١٢٤) .

حاجة البشر إلى الرسالة

لقــد خلــق الله تعالى الإنسان وبه قوى ثلاث : قوة الشهوة وقوة الغضب ، وقوة العقل ، وكل قوة من هذه القوى تدفعانه بمقتضى ما ركب فيه من غرائز وشهوات .

فقوة الشهوة والغضب تدفع الإنسان إلى الشر أكثر من الخير ، أما قوة العقل التي أودعها الحق جل شأنه للإنسان لكي تصده عن الشر وتميل به إلى جانب الخير .

ذلك أن المشاهد في حياة الإنسان وسلوكه أن العقل الإنساني عندما تغيب عنه هداية السماء يضل في تفكيره وتطغى عليه الشهوات وتميل به الأهواء عن سنن العدل .

وأيضـــاً نعلــم أن العقل محدود الإدراك لا يقدر على التوصل إلى جمــيع المعــارف خصوصـــاً ما يسعده منها وما يشقيه في حياته الدنيوية والأخروية .

ومن هنا كان احتياج البشر إلى الرسل ، فكانت حكمة العليم الخبير الذي يعلم قصور العقل عن هداية الإنسان في حياته فأرسل الرسل يكملون الــنقص في العقل الإنساني ويعرفونه ما يسعده وما يشقيه من الاعتقادات والأعمـــال . كما كان من مقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الإلهية الواســعة ألا يــترك الــناس ســدى أو هملاً يتخبطون على غير هدى أو يختلفون بغير حكم ولا مرجع ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وليحكموا بين الناس فيما اختلفوا

فـيه ، وليضـعوا لهم أسس الحياة الفاضلة وليرسموا لهم الطريق إلى الله وإلى سعادة الآخرة والأولى لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

فلبعثة الرسل فوائد كما يقول صاحب المقاصد ، وهي لطف من الله تعالى ورحمة للعالمين لما فيها من حكم ومصالح منها :

معارضـة العقل فيما لا يستقل بمعرفته ، ومنها استفادة الحكم من النبـي فيما لا يستقل به العقل ، ومنها بيان حال الأفعال التي تحسن تارة وتقـبح تارة أخرى من غير اهتداء العقل إلى مواقعها ، ومنها بيان منافع الأغذية والأدوية ومضارها التي لا تفي بها التجربة إلا بعد أدوار وأطوار مع ما فيها من الأخطار ، ومنها تكميل النفوس بحسب استعداداتهم المختلفة فـي العملـيات والعلمـيات ، ومـنها تعليم الصنايع الخفية من الحاجيات والضـروريات ، ومـنها تعلـيم الأخلاق الفاضلة الراجعة إلى الأشخاص والسياسـات الكاملـة العـايدة إلى الجماعات من المنازل والمدن ، ومنها الأخـبار بتفاصـيل ثـواب المطيع وعقاب العاصي ترغيباً في الحسنات وتحذيرا عن السيئات [١] .

فـالعقل البشـري لا يسـتطيع أن يعرف ما يرضي الله تعالى من الاعـتقادات والأفعال ، وكذلك لا يعرف ما يغضب الله تعالى لكي يجتنبه لـئلا يعرض نفسه للعقاب ، فالعقل محتاج لمن يرشده إلى ذلك بالتفصيل ، وهـؤلاء هـم الرسـل الذين اصطفاهم الله من أفضل وأكرم الناس أنساباً وأقواهم عقولاً وأطهرهم أخلاقاً وجعل أرواحهم مستعدة لتلقي وحيه تعالى

---

[١] شرح المقاصد (٢ / ١٢٨) .

وشرائعه وتبليغها إلى الناس ليسعدوا في دنياهم وأخراهم .

فحاجـــة البشـــر إلـــى الرسل حاجة ملحة لأن المجتمع البشري لا يستغنى عن تعاليمهم لأنها أقوى العوامل في تقويم أخلاق الخاصة والعامة وسلطانها على النفوس أقوى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم ذلك لأنهـــا مـــن عـــند العليم الخبير الذي يعلم ما يصلح عباده فيفرضه عليهم ويتعبدهم به ويحاسبهم أشد الحساب إن أهملوا وفرطوا فيه [١] .

---

[١] الدكتور محي الدين الصافي : النبوات (ص ١٩) .

شبه المنكرين للنبوة

يقـــول الإمــــام سعد الدين التفتازاني في المقاصد " المنكرون للنبوة مـــنهم مـــن قال باستحالتها ، ومنهم من قال بعدم الاحتياج إليها كالبراهمة جمع في الهند أصحاب براهام " [١] .

ويقول الشهرستاني : " وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقـــال له بـــراهم وقـــد مهد لهم نفي النبوات أصلاً وقرر استحالة ذلك في العقول " [٢] .

ويقـــول إمـــام الحرميـــن الجويني : " قد أنكرت البراهمة النبوات وجحدوها عقلاً وأحالوا انبعاث بشر رسولاً " [٣] .

هذا وقد ذكر صاحب المقاصد أربع شبه لمنكري النبوة جعل الثانية مـــن هذه الشبه للبراهمة وجعلها إمام الحرمين الجويني والشهرستاني كلها للبراهمة :

الشـــبهة الأولى : أن البعثة تتوقف على علم المبعوث بأن الباعث هو الله تعالى ولا سبيل إلى ذلك ، بمعنى أنه ليس هناك طريق لمعرفة ذلك فلا طريق لثبوت النبوة .

الرد على هذه الشبهة :

في غاية الوضوح والبساطة لأن الله تعالى لا يعجز عن أن يعرف

---

(١) الإمام سعد الدين التفتازاني : شرح المقاصد (١ / ١٢٩) .
(٢) الشهرستاني : الملل والنحل (٣ / ٩٦) .
(٣) إمام الحرمين الجويني : الإرشاد (ص ٣٠٢) .

المـــبعوث بأن باعثه هو الله تعالى وذلك يكون إما بنصب دليل له يعلم منه ذلك وأما أن يخلق فيه علماً ضرورياً بأن الباعث له هو الله تعالى .

الشبهة الثانية وهي للبراهمة :

وهي كما ذكر صاحب المقاصد فيقول : إن ما جاء به النبي إما أن يكون موافقاً للعقل حسناً عنده فيقبل ويفعل ، وإن لم يكن نبي أو مخالفاً له قبيحاً عنده فيرد ويترك وإن جاء به النبي ، وأياً ما كان لا حاجة إليه .

وهذه الشبهة كما هو واضح مبنية على حكم تحسين العقل وتقبيحه وهذا باطل لأن العقل يحكم بحسن الشئ أو الفعل تبعاً للمنفعة ويحكم بقبحه تـــبعاً للمفســـدة والمصلحة تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والأمكنة فيتغير الشئ من الحسن إلى القبيح عند شخصين مختلفين فيكون حسناً عند أحدهما قبيحاً عند الآخر وكذلك في زمانين ومكانين .

الرد على هذه الشبهة :

- يقول الإمام سعد الدين التفتازاني في الجواب عن هذه الشبهة : أن مـــا يوافـــق العقل قد يستقل بمعرفته فيعاضده النبي ويؤكده بمنزلة الأدلة العقلـــية علـــى مدلـــول واحد ، وقد لا يستقل أي العقل فيدل عليه ويرشده وما يخالف العقل قد لا يكون مع الجزم فيدفعه النبي أو يرفع الاحتمال عنه ومـــا لا يـــدرك حســـنه ولا قبحه قد يكون حسناً يجب فعله أو قبيحاً يجب تـــركه ، هذا مع أن العقول متفاوتة فالتفويض إليها مظنة التنازع والتقاتل ومفضـــي إلـــى اختلال النظام وأن فوائد البعثة لا تنحصر في بيان حسن الأشياء وقبحها فقط .

الشبهة الثالثة :

أن البعثة تقوم على التكليف وهو عبث لا يليق بالحكيم إذ لا يشتمل علـــى فـــائدة للعبد لكونه في حقه مضرة ناجزة ومشقة ظاهرة ولا للمعبود لتعالـــيه عن الاستفادة أو الانتفاع ، وأيضاً منه شغل للقلب عن الاستغراق في معرفة المعبود والفناء في عظمته .

والجواب عن هذه الشبهة :

أن مضـــار التكلـــيف ومشاقه قليلة جداً بالنسبة إلى منافعه الدنيوية والأخـــروية كما هو معلوم لدى الواقفين على ظواهر الشريعة فضلاً عن الكاشفين عن أسرارها الخفية ، وعند التأمل تلحظ أن التكليف موصل إلى الاستغراق في معرفة المعبود لا شاغل عنه على ما توهم هؤلاء .

الشبهة الرابعة :

وهي كما يقول صاحب المقاصد لأهل الخلاعة المنهمكين في اتباع الهوى وترك الطاعة ، إنا نجد الشرائع مشتملة على أفعال وهيئات لا تشك في أن الصانع الحكيم لا يعتبرها ولا يأمر بها كما تشاهد في الحج والصلاة وكشـــغل بعـــض الأعضـــاء لتلوث بعض آخر إلى غير ذلك من الأمور الخارقة عن قانون العقل .

الجـــواب :

أنها أمور تعبدية اعتبرها الشارع ابتلاء للمكلفين وتطويعاً لنفوسهم وتأكيداً لملكة امتثالهم الأوامر والنواهي ولعل فيها حكماً ومصالح لا يعلمها إلا الله ، والراسخون في العلم ، وقد أشار إليها بعض الخائضين في بحار الشريعة .

الشبهة الخامسة :

هي القدح في المعجزات وستأتي عندما نتكلم عن المعجزة .

وإذا كانت هذه الشبهة قديمة فهي حديثة أيضاً لأن المنكرين للنبوة في كل زمان ومكان يحاولون نفث سموم الإلحاد يرددون هذه الشبهات وواجبنا اليوم أن نعرفها ونعرف الردود عليها لنتصدى لهؤلاء المنكرين لأننا حراس العقيدة ، فواجبنا الدفاع عنها ، ولا يخفى أن الشيوعيين ينكرون النبوات ولا يعترفون بالأنبياء ويقول عنهم أنهم فلاسفة ومفكرون ، وإثبات نبوة الأنبياء بالمعجزات فيه إفحام لهؤلاء وأمثالهم .

المعجـــزة

إن الكـــلام عـــن المعجزة يتناول عدة أمور منها : مفهوم المعجزة وشروطها ، وبيان إمكانها ، مع بيان كيفية دلالتها على صدق الرسل وبيان الفـــرق بيـــنها وبين الكرامة والسحر ، وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بالمعجزة .

تعريف المعجزة وشروطها :

المعجـــزة فـــي اللغـــة مشـــتقة من العجز المقابل للقدرة ، وحقيقة الإعجاز إثبات العجز ثم أسند مجازاً إلى ما هو سبب العجز الذي هو الفعل الخارق للعادة وجعل اسماً له فهو معجز ثم زيدت التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما زيدت في الحقيقة لهذا وقيل التاء في المعجزة للمبالغة كما في العلامة .

أمـــا فـــي الاصطلاح : فقد عرفها السعد : بأنها أمر خارق للعادة مقـــرون بالـــتحدث مـــع عدم المعارضة يظهره الله تعالى على يد الرسل تصـــديقاً فـــي دعواهم للرسالة . فقال أمر ولم يقل فعل لأن الأمر يتناول الفعـــل كنـــبع الماء من الأصابع والترك كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام أو عدم القيام لشخص قادر على القيام .

ومقـــرون بالـــتحدي : قيد في التعريف يخرج الكرامة والعلامات الإرهاصية التي تتقدم بعثة الأنبياء ، وبقية الخوارق . ومع عدم المعارضة قـــيد آخر يخرج السحر والشعوذة وغرائب المخترعات فإنها مما يعارض إذا تعلمها الناس وعرفوا أسبابها .

شروط المعجزة :

إن الــتعريف الذي ذكر للمعجزة يشتمل على شروطها ، فلابد هنا من ذكر هذه الشروط وهي سبع :

الأولى : أن تكون المعجزة فعلاً لله تعالى أو ما يقوم مقام هذا الفعل مــن الــترك . ومعنى هذا أن الفعل ليس من متعلقات قدرة العباد فيشمل القــول كالقرآن الكريم ، والفعل كنبع الماء من أصابع النبي ﷺ ، والترك كعــدم إحــراق الــنار لسيدنا إبراهيم عليه السلام . ومن هذا القبيل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى .

فشرط المعجزة أن تكون فعلاً لله تعالى لأنها إنما أتى بها لتدل على صدق الرسول في قوله : إني مرسل من الله تعالى إلى العباد فهي مصدقة له في قوله ، والتصديق من الله تعالى لرسوله في دعواه الرسالة لا يحصل بما ليس من قبله فوجب أن تكون فعلاً لله .

الشرط الثاني : أن يكون ذلك الأمر خارقاً للعادة . وإنما اشترط أن يكون خارقاً للعادة لأنه إذا لم يكن خارقاً للعادة لا يكون دالاً على الصدق ، كمــا إذا قــال معجزتي طلوع الشمس كل يوم ، فإنه ليس خارقاً للعادة ، فيمكن للكاذب أن يدعي الرسالة ويجعل ما ذكر دليلاً على دعواه وهو ليس بنبي في الواقع .

وخرج بهذا القيد السحر والشعوذة ، فالسحر قواعد تأتي عن طريق الــتعلم بها يقوم الإنسان بأفعال غريبة بالنسبة لمن جهل هذه القواعد . كذا فإن الشعوذة خفة في اليد تأتي أيضاً بالتعلم ولعدم علم الكثير من الناس

بتلك القوانين ، كانت غريبة في نظرهم ومن هذا القبيل ما تشاهده الآن من مخترعات حديثة كالتليفون أو البرق وغير ذلك .

الشـــرط الثالث : أن تتعذر معارضته ، فالمعجزة تتعذر معارضتها لأنه لو أمكن معارضتها ، لأمكن للكاذب أن يدعي النبوة ويأتي بأمر يماثل ما أتى به الرسول .

الشـــرط الرابع : أن يكون ظاهراً على يد مدعي النبوة ، فلو كان ظاهراً على يد غيره لم يكن معجزة .

الشرط الخامس : أن يكون موافقاً للدعوى ، فإن خالفت الدعوى لم تكـــن معجـــزة ، فلو قال معجزتي أن أحيي ميتاً فحصل خارقاً آخر كنتق الجبل مثلاً فإن هذا لم يدل على صدقه ، لعدم تنزيله منزلة تصديق الله إياه

الشـــرط الســـادس : أن لا يكـــون المعجز مكذباً للنبي ، فلو قال معجزتـــي أن يـــنطق هذا الضب ، فقال أنه كاذب لم يعلم به صدقه ، بل ازداد اعتقاداً بكذبه ، لأن الذي كذبه هو نفس الخارق .

الشـــرط الســـابع : أن لا تكون المعجزة متقدمة على الدعوى بل مقارنة لها ، فالتصديق قبل الدعوى لا يعقل وما حدث لبعض الأنبياء قبل دعـــوى الرسالة من مثل تكلم عيسى في المهد وتظليل الغمام لنبينا ﷺ كان ذلك من قبيل الإرهاص وتأسيس النبوة .

الفرق بين المعجزة وغيرها من الأمور الخارقة للعادة

بعد أن بينا أن المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد مدعـــي النـــبوة ، ومع ذلك فإن هناك أمور خارقة للعادة من نظام الكون ونواميســـه الطبيعية خارجة عن دائرة المعجزة وذلك بوجود وجوه مغايرة بينها وبين المعجزة من هذه الأمور ما يلي :

الكرامـــة :

وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح وهو الـــذي يســـمى الولي إكراماً له من الله تعالى له بعد أن جاهد في الله حق جهاده حتى هداه الله للحق فامتثل أوامر شرعه ودينه وانتهى عن كل منكر

فالفـــرق بين المعجزة والكرامة هو أن المعجزة من فعل الله تعالى والكـــرامة مـــن فعـــل العبد والكرامة غير مقرونة بدعوى النبوة بخلاف المعجزة ، فإنها مقرونة بدعوى النبوة .

الإرهاصات :

سميت بذلك لأنها مقوية ومقدمة للنبوة وهي التي صدرت عن النبي قبل إظهار النبوة ، كتصدع إيوان كسرى وانطفاء نار الفرس وظهور النور في جبين عبد الله والد النبي ﷺ .

الاستدراجات :

وهي الخوارق التي تظهر على يد عبد ظاهر الفسق موافقة لدعواه وســـميت استدراجاً بمعنى أن الله استدرجه بإظهار ذلك على يديه فيتمادى بفسقه حتى إذا أخذه الله تعالى لم يفلته والعياذ بالله .

الإهانـــات :

وهي الخوارق الظاهرة على يد الكافر كما وقع من مسيلمة الكذاب الــذي ادعـــى الرسالة في زمن نبينا محمد ﷺ ، فقد بصق في عين رجل لتشـــفى فعميت الأخرى ، وفي هذا خذلانه وتكذيبه ، فهذا خزياً له من الله سبحانه وتعالى لذلك الكذاب .

الفرق بين المعجزة والسحر :

اقتضت حكمة المولى ﷻ أن يؤيد رسله بالمعجزة تصديقاً لدعواهم ومـــع هذا فإن هناك الكثير من الأمور التي تجري على غير النحو العادي المعروف . من هذه الأمور السحر .

يقول صاحب المقاصد في تعريفه : " إظهار أمر خارق للعادة من نفس شريرة خبيثة بمباشرة أعمال مخصوصة يجري فيها التعلم والتتلمذ ، وبهذيـــن الاعتباريـــن يفـــارق المعجزة والكرامة ، وبأنه لا يكون بحسب اقـــتراح المقترحيـــن وبأنه يختص ببعض الأزمنة أو الأمكنة أو لشرائط ، وبأنـــه قد يتصدى بمعارضته ويبذل الجهد في الإتيان بمثله ، وبأن صاحبه ربما يعلن بالفسق وينصف بالرجس في الظاهر والباطن والخزي في الدنيا والآخـــرة إلى غير ذلك من وجوه المفارقة وهو عند أهل الحق جائز عقلاً ثابت سمعاً [١] .

فلقـــد ورد السـحر فـــي كتاب الله الكريم ، منها ما ورد في قصة هاروت وماروت كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطيـــن**

---

[١] المقاصد (٢ / ١٥٢) .

علـــى ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حـــتى يقـــولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المـــرء وزوجـــه ومـــا هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضـــرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ [١] .

ولقـــد كـــان مـــن أهم ما فسرت به الآية الكريمة ما روي من أن السحرة كثروا في ذلك الزمان واستخدموا أعمالاً غريبة في السحر وكانوا يدعون النبوة ويجعلون تلك الأعمال السحرية معجزاتهم ، فبعث الله تعالى هذين الملكين لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر حتى يستطيعوا معارضة أولـــئك الســـحرة الذيـــن يدعـــون النبوة كذباً ، ولاشك أن هذا من أحسن المقاصـــد ، فهذان الملكان كانا لا يعلمان أحداً السحر حتى يبذلا النصيحة فـــيقولا : إنمـــا نحن فتنة ، أي محنة يتميز بها المطيع من العاصي ، فهذا الـــذي نصـــفه لك من السحر وإن كان القصد منه أن يظهر به الفرق بين الســـحر والمعجزة ، ولكن يمكنك أن تتوصل به إلى المفاسد والمعاصي ، فإيـــاك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه أو تتوصل به إلى شئ من الأغراض العاجلة ، ثم إن القوم تعلموا منها السحر واستعملوه في الشر وإيقاع الفرقة بين المرء وزوجه .

هذا وقد اتفق المحققون على أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور

---

[١] سورة البقرة الآية (١٠٢) .

وإنما المحظور العمل به ، وتقرير الآية بهذا الوجه لا إشكال فيه ولا يدل علـــى معصية الملكين كما هو ظاهر ، بل يكونان قد امتثلا أمر الله تعالى فـــي التعظـــيم ، كما لا إشكال في أنه كيف ينزل الله تعالى عليهما السحر المنهي عنه لأن المحرم هو العمل به لا تعلمه لأجل مقصد حسن [١] .

فللسحر حقيقته ووجوده بدليل الكتاب الكريم ، أما السنة فقد ورد أن النبـــي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم وأثر سحره فيه حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشئ وهو لا يفعله ، أو يأتي شيئاً وهو لا يأتيه ، وأن الله أنبأه بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بئر وعوفي ﷺ مما كان نزل به من ذلك [٢] .

فالســـحر أمر غريب يشبه خوارق العادات وليس خارقاً للعادة لأنه يـــنال بالـــتعلم ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح قولاً وفعلاً واعتقاداً ، وبهذا يتميز الساحر عن النبي والولي ، أما عن النبي فلأن المعجزة أمر خارق لعادة الله تعالى ، وأما عن الولي فلأن الولي ليس شريراً مخادعاً بخلاف الساحر .

---

(١) انظر في هذا : تفسير الإمام الرازي (١ / ٤٤٢ – ٤٥٠) .
(٢) الإمام الرازي : التفسير الكبير (١ / ٤٤٨) .

اعتراض المنكرين للنبوة على إمكان المعجزة

قـــال علماء الكلام : المعجزة من الأمور الممكنة وليست من نوع المســـتحيل العقلـــي بل قالوا إن إمكانها ضروري لا يحتاج إلى استدلال ، وخالف هذا نفر قليل وقالوا : إن المعجزة من قبيل المستحيل .

قـــال صاحب المقاصد : قدح بعض المنكرين للنبوة في المعجزات بأن تجويز خوارق العادات سفسطة واعترضوا على المعجزة بما يأتي :

الاعتراض الأول :

قالوا : لو كانت المعجزة ممكنة لجاز أن ينقلب الجبل ذهباً والبحر دهناً والمدعي للنبوة شخص آخر عليه ظهرت المعجزة .

الجواب عن هذا الاعتراض :

أن المعجزة ممكنة في ذاتها إذ المراد بخوارق العادات أمور ممكنة فـــي نفســـها ممتنعة في العادة بمعنى أنها لم يجر العادة بوقوعها كانقلاب العصــــا حية فإمكانها شروري وإيداعها ليس أبعد من إبداع خلق الأرض والســـماء وما بينهما ، والجزم بعدم وقوع بعضها كانقلاب الجبل والبحر ، وهذا الشخص لا ينافي الإمكان الذاتي .

الاعتراض الثاني :

قـــالوا : إن المعجـــزة على تقدير ثبوتها لا تثبت على الغائبين لأن أقـــوى طـــرق نقلهــا التواتر وهو لا يفيد اليقين واستندوا في ذلك إلى أن الـــتواتر يجـــوز الكذب فيه على كل فرد من أفراده فما يجوز على الفرد يجوز على الكل لكونه نفس الآحاد .

الجواب عن هذا الاعتراض :

هو أن التواتر يفيد العلم الضروري لأن المتواترات أحد أقسام الضروريات ، فالقدح فيها قدح في الضروريات ، أما قولهم أنه يجوز الكذب على الكل لجوازه على كل أحد من أفراده لأن الكل نفس الآحاد ، فهو يدل على عدم معرفتهم للتواتر ، لأن التواتر هو الخبر المستفاد من جمع يؤمن عند العقل تواطؤهم على الكذب وهذا الجمع لا يقل عن ثلاثة فإذا جوز العقل اتفاقهم على الكذب لم يكن خبرهم متواتراً .

فالتواتر يفيد العلم الضروري الذي لا يشك فيه ، فمن ينكر أن بون عاصمة ألمانيا وهو لم يرها ، فالمعجزة تثبت بالتواتر على الغائبين عن النبي ﷺ سواء كانوا بعيدين عن مكانه أو متأخرين عن زمانه ويجب عليهم العمل بشريعته والامتثال لأوامره والاجتناب لنواهيه .

وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول :

يقول صاحب المقاصد الإمام سعد الدين التفتازاني :

" أما وجه دلالتها على صدق الرسول ، أنها عند التحقيق بمنزلة صريح التصديق لما جرت العادة به من أن الله تعالى يخلق عقبيها العلم الضروري بصدقه ، كما إذا قام رجل في مجلس ملك بحضور جماعة من أعوانه وادعى أنه رسول هذا الملك إليهم فطالبوه بالحجة فقال : هي أن يخالف هذا الملك عادته ويقوم من سريره ثلاث مرات ويقعد ففعل ، فإنه يكون تصديقاً له ومفيد للعلم الضروري بصدقه .

فإن اعترض على هذا التمثيل وقيل هذا تمثيل وقياس للغائب على

الشـــاهد ، والتمثـــيل أساسه في الفقه أي الأحكام الفرعية العملية وهذا يفيد الظـــن ، وقـــد اعتبر نموه في الأحكام الاعتقادية الأصلية التي هي أساس ثبوت الشرائع ولابد فيها من اليقين .

أجيب عن هذا الاعتراض : بأن التمثيل إنما هو للتوضيح والتقريب دون الاستدلال [١] ، ولا مدخل لمشاهدة القرائن في إفادة العلم الضروري لحصوله على الغائبين عن هذا المجلس عند تواتر القضية إليهم .

إذن فدلالـــة المعجزة على صدق الرسول دلالة عقلية يقينية ، لأن المعجـــزة هي الدليل الدال على صدق الرسول فيستحيل عقلاً أن يظهرها الله تعـــالى علـــى يد الكاذب لأنه يختلط بالصادق وهذا إضلال لا هداية ، ولأن تصديق الكاذب كذب وهو محال على الله تعالى ، لهذا يقول صاحب المقاصـــد : ومنا من قال باستحالته عقلاً أي استحالة ظهور المعجزة على يد الكاذب .

الشبه على دلالة المعجزة على صدق الرسول :

جرت عادة بعض الناس أنهم لم ينكروا الخارق إلا أنهم أنكروا أن يكـــون هذا الخارق دالاً على صدق الرسول في دعوى الرسالة ، واستندوا إلى احتمالات زاعمين أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال إلا أن هـــذه الاحتمالات التي جاءوا بها ضعيفة لا تقدح في دلالة المعجزة على صدق الرسول .

الأول : احتمال أن لا يكون ذلك الخارق من الله تعالى بل يرجـــع

---

[١] **الإمام سعد الدين التفتازاني : شرح المقاصد (٢ / ١٣١) .**

إلـــى المدعي ، أما لخاصية في نفسه أو مزاج في بدنه أو لإطلاعه على خـــواص المـــادة فـــي بعض الأجسام يتخذها ذريعة إلى ذلك أو يستند إلى بعــض الملائكة أو الجن أو إلى اتصالات كوكبية وأوضاع فلكية لا يطلع عليها غيره إلى غير ذلك من الأسباب .

الثانـــي : احتمال أن لا يكون خارقاً للعادة بل ابتداء عادة أراد الله إجـــراؤها أو تكريـــر عادة لا تكون في دهور متطاولة كعودة الثواب إلى نقطة معينة .

الثالـــث : احـــتمال أن يكون مما يعارض إلا أنه لم يعارض لعدم بلوغه إلى من يقدر المعارضة أو المواضعة من القوم وموافقته في إعلاء كلمـــته أو لخـــوف أو لاســـتهانة وقلـــة مبالاة أو لاشتغال بما هو أهم أو عوارض ولم ينقل لمانع .

الـــرابع : احتمال أن لا يكون لغرض التصديق إما لانتفاء الغرض في فعله على ما هو المذهب ، وإما لثبوت غرض آخر مثل أن يكون لطفاً بمكلـــف أو إجابة لدعوته أو معجزة لنبي آخر أو ابتلاء للعبد لينال الثواب بالـــتوقف عن موجب هذا الخارق لإيهام تصديقه فيحترز منه العبد بالنظر والاجـــتهاد وذلك كإنزال المتشابهات أو إضلالاً للخلق على ما هو المذهب عندكم من الله تعالى يضل من يشاء من عباده .

وفـــي الجواب عن هذه الاحتمالات يقول صاحب المقاصد : وبعد تسليم انتفاء الاحتمالات وكون المعجزة بمنزلة صريح القول من الله تعالى بأن المدعي صادق ، فهو لا يوجب صدقه إلا بعد ثبوت استحالة الكذب في أخبار الله تعالى ولا سبيل إلى ذلك بدليل السمع للزوم ولا بدليل العقل لأن

غايــته أن الكذب قبيح وهو على الله تعالى مستحيل وثبوت المقدمتين بغير دليل السمع في حيز المنع .

فــالجواب إجمــالاً : أن الاحــتمالات والتجويزات العقلية لا تنافي العلــوم العاديــة الضرورية القطعية ، فنحن نقطع بحصول العلم بالصدق عقب ظهور المعجزة من غير التفات إلى ما ذكر من الاحتمالات .

والجواب تفصيلاً :

أولاً : أن لا مؤثــر فــي الوجود إلا الله تعالى سيما في مثل إحياء الموتى ، وانشقاق القمر وسلام الحجر والمدر .

ثانــياً : أن الكــلام فــيما حصل التصديق بأنه خارق للعادة وأن المتحديــن عجزوا عن معارضته مع كونهم أحق بها إن أمكنت المعارضة لكــثرة انشــغالهم بما يناسب ذلك وكمالهم فيه وفرط اهتمامهم بالمعارضة وتوفر دواعيهم ، ولهذا كانت معجزة كل نبي من جنس ما غلب على أهل زمانه وتهالكوا عليه وتفاخروا به كالسحر في زمن موسى عليه السلام والطب في زمن عيسى والموسيقى في زمن داود والفصاحة في زمن محمد ﷺ .

ثالــثاً : أنــه لا خفــاء ولا خلاف في ترتيب الغايات والآثار على بعــض أفعاله وإن لم يجعلها أغراضاً له ، فالمعجزة قد دلت على تصديق مــن الله تعــالى ، ولهذا يقول صاحب المقاصد : لا خفاء في ثبوت النبوة بخلــق العلــم الضروري كعلم الصديق رضي الله عنه ويخير من تثبيت عصمته عن الكذب كنصوص التوراة والإنجيل في نبوة نبينا عليه السلام وكإخبار موسى عليه السلام بنبوة هارون وكالب ويوشع عليهم السلام [١] .

---

[١] انظر شرح المقاصد (٢ / ١٣٢) .

أقسـام المعجـزة

قلـنا سابقاً في تعريف المعجزة : أنها أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد الرسول تصديقاً لدعوى الرسالة .

وهذه المعجزات التي أيد الله تعالى بها رسله عليهم الصلاة والسلام تنقسم إلى عدة أقسام باعتبارات مختلفة :

أولاً : باعتبار كونها قولاً أو غيره تنقسم إلى أقسام ثلاثة :

١ – قول : كالقرآن الكريم .

٢ – فعل : كنبع الماء من بين أصابع المختار .

٣ – ترك : كعدم إحراق الناس لسيدنا إبراهيم .

ثانياً : باعتبار طريق ثبوتها تنقسم إلى قسمين :

١ – ما ثبت بالتواتر كالقرآن الكريم .

٢ – ما ثبت بطريق الآحاد كباقي المعجزات .

ثالثاً : باعتبار كونها معقولة أو مشاهدة تنقسم إلى قسمين :

١ – معنوية كالقرآن الكريم .

٢ – حسـية كانشـقاق القمـر وتسـبيح الحصى ورد عين قتاده وغير ذلك .

بعض معجزات الرسول ﷺ

المعجزة المعنوية الخالدة : القرآن الكريم :

لقــد كانت الرسالات السماوية السابقة على الرسالة الخاتمة ، كانت كــل رســالة منها خاصة بقوم معينين في زمان معين ومكان معين حتى كانــت الرسالة الخاتمة على صاحبها أفضل الصلاة وأذكى التسليم لم تكن شــأن الرسالات السابقة وإنما كانت رسالته ﷺ عامة للإنسانية كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

يقول الله ﷻ ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا** ﴾ [١]

ويقول أيضاً ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ [٢]

ويقول أيضاً ﴿ **وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ [٣]

فلهــذا كانــت معجزة هذه الرسالة الخاصة هي معجزة خالدة خلود الدهــر باقــية مــا بقي الزمان ، فكانت تلك المعجزة هي الكتاب الخالد : القرآن الكريم .

إعجاز القرآن الكريم :

لقد كان من الأدلة الدالة على صدق الرسول ﷺ في دعواه الرسالة " القــرآن الكريم " فقد جاء فوق طاقة البشر ولم يمكنهم معارضته لأنه من عند الله تبارك وتعالى .

---

[١] سورة سبأ الآية (٢٨) .
[٢] سورة الأعراف الآية (١٥٨) .
[٣] سورة الأنعام الآية (١٩) .

فلمـــا ســـمعه العرب استحوذ على قلوبهم وسيطر على مشاعرهم فبهرهم أسلوبه ونسقه ، فآمن منهم من آمن من أصحاب القلوب الطاهرة والنفوس الصـــافية ، إلا أن الكثـــير منهم ركبوا رؤوسهم وأقاموا بينهم وبين القرآن العظـــيم ســـداً منيعاً كلا لا يتسلل نوره إلى قلوبهم ليبدد ما بها من ظلام ، فأبوا أن يسيروا وراء الرسول ﷺ فكان ما حكاه القرآن عنهم ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ (١) .

وقـــالوا عن المعصوم ﷺ أنه شاعر وأنه كاهن وأنه ساحر ... الخ هـــذا الهذيان السخيف ، ورد عليهم القرآن الكريم قائلاً : ﴿ **وقالوا أساطير الأوليـــن اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً** ﴾ (٢) .

وقال الحق تبارك وتعالى أيضاً ﴿ **إنه لقول رسول كريم . وما هو بقـــول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين** ﴾ (٣) .

فقـــد تحدى القرآن الكريم هؤلاء المعاندين المكابرين أن يعارضوا القـــرآن الكريم فقال تعالى ﴿ **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾ (٤) فعجزوا عن معارضة القرآن بمثله ، فكان الانتقال معهم إلى الخطوة التالية وهي معارضة القرآن بقدر أقل من المعارضة بالمثل فقال سبحانه وتعالى

---

(١) سورة الزخرف الآية (٣١) .
(٢) سورة الفرقان الآية (٥ ، ٦) .
(٣) سورة الحاقة الآية (٤٠ – ٤٣) .
(٤) سورة الطور الآية (٣٤) .

﴿ **أم يقولـــون افـــتراه قـــل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من اســـتطعتم مـــن دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا إنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون** ﴾ [١] .

وكـــان من الضروري أن يعجزوا عن المعارضة فهو ﴿ **تنزيل من حكيم حميد** ﴾ [٢] .

ولمـــا كانـــت هـــذه الخطوة كسابقتها وهي عجز هؤلاء المكابرين المعاندين فكانت هناك خطوة أخرى لهم وهي معارضة القرآن بمثل سورة مـــنه وهـــو مـــا تحكيه الآية الكريمة ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عـــبدنا فـــأتوا بســـورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [٣] .

وهـــنا يســـجل القرآن الكريم عجزهم عن المعارضة وأنهم لم ولن يســـتطيعوا معارضـــته ولـــو بمثل سورة ، فكان يجب عليهم أن يعترفوا بعجزهم وأن يجعلوا بينهم وبين النار وقاية تقيهم من عذابها ، فقد قال الله تعـــالى ﴿ **فـــإن لـــم تفعلـــوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ [٤] .

ولهـــذا فقـــد كان لابد من الاعتراف بأن كتاب الله تعالى خالد وأنه معجز وأنه لو اجتمع البشر كلهم ووجهوا كل طاقتهم إلى معارضة القرآن

---

[١] سورة هود الآية (١٣ ، ١٤) .
[٢] سورة فصلت الآية (٤٢) .
[٣] سورة البقرة الآية (٢٣) .
[٤] سورة البقرة الآية (٢٤) .

الكريم ، فإن مصيرهم سيكون لا محالة إلى الفشل والإخفاق الذريع ..

يقول الله تعالى ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ [١]

ذلك أنه كلام رب العالمين وأنه أنزل على قلب الرسول الأمين سيدنا محمد ﷺ ليكون معجزته الخالدة الباهرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وجه إعجاز القرآن

لقد تحدث علماء الكلام عن وجه إعجاز القرآن الكريم ، ويكفيه إعجازاً قول الحق جل شأنه في علاه ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ [٢] .

إن القرآن الكريم سيظل غنياً وثرياً أودع الله فيه من وجوه الإعجاز المختلفة وسوف يظل القرآن الكريم مجالاً لبحوث العلماء والمفكرين يستشفون منه الأسرار ويقتبسون منه الأنوار ويتجلى لهم المولى ﷻ بالفيوضات والإشراقات على مدى العصور وتعاقب السنين ، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ **ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ [٣] . ومع ذلك فقد كان هناك وجوه لإعجاز القرآن الكريم ذكرها العلماء ، نذكر منها بإيجاز :

---

[١] سورة الإسراء الآية (٨٨) .
[٢] سورة الكهف الآية (١٠٩) .
[٣] سورة لقمان الآية (٢٧) .

أولاً : القــرآن الكــريم معجز من ناحية بلوغه الدرجة العليا في البلاغة والفصاحة :

فقــد تحدى القرآن الكريم العرب جميعاً وكان فيهم أرباب الفصاحة والــبلاغة الواقفــون على أسرارها والعارفون بأساليبها ومع هذا كله فقد عجــزوا جميعاً عن معارضته وسجل القرآن الكريم عجزهم كما جاء في قولـــــه تعــالى ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ [١] .

ثانياً : القرآن معجز من ناحية إخباره بالمغيبات :

لقــد أخبر القرآن الكريم عن أمور قد وقعت وعن أمور ستقع في المســتقبل ، قــال تعالى ﴿ **ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلــبهم ســيغلون في بضع سنين** ﴾ [٢] ، وقوله تعالى ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ [٣] .

ثالثاً : القرآن الكريم معجز من ناحية اشتماله على قصص السابقين :

فقــد اشــتمل القــرآن الكــريم علـــى قصص الأولين من الأنبياء والمرسلين من ذلك مثلاً ما حكاه القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى :

---

[١] سورة الإسراء الآية (٨٨) .
[٢] سورة الروم الآيات (١ – ٣) .
[٣] سورة الفتح الآية (٢٧) .

﴿ ومــا كنــت بجانــب الغربــي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشــاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ساوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ ناديــنا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ (١) .

هذا بالإضافة إلى اشتماله على الحكم والمواعظ والآداب التي تهذب الــنفوس واشــتماله على التشريعات والأحكام التي تنظم مصالح العباد في دنــياهم وأخــراهم ، مع خلوه من الاختلاف والتناقض ، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

وبعــد فهــذه بعض وجوه لإعجاز القرآن الكريم ومن أراد المزيد فعلــيه بكتب التفسير فليرجع إليها من شاء ليزداد صلة بكتاب ربه العظيم ليكون شفيعه في موقف العرض والحساب أمام الله رب العالمين .

فيا رب اللهم اهدنا وارحمنا بالقرآن واجعله لنا إماماً ونوراً ، اللهم علمنا منهُ ما جهلنا وذكرنا منه ما نسينا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله حجة لنا يا رب العالمين .

---

(١) سورة القصص الآيات (٤٤ ـ ٦٦) .

نماذج من معجزات النبي ﷺ الحسية :

بعد أن بان أن النبي ﷺ قد أعطاه الله تعالى المعجزة الخالدة الباقية إلى قيام الساعة وهي : القرآن الكريم ، كذلك قد وقعت على يديه ﷺ الكثير مـــن المعجزات الحسية وهي أفعال ظهرت منه ﷺ على خلاف العادة . ويقول صاحب المقاصد : أنها تزيد على الألف ، بعضها إرهاصية ظهرت قـــبل دعوى النبوة ، وبعضها تصديقية ظهرت بعد دعوى النبوة ، أما التي قبل النبوة فكالنور الذي كان يتقلب في آبائه إلى أن ولد ، وكولادته مختوناً مقطوع السرة وكإظلال الغيام له .. إلى غير ذلك .
وأما التي بعد النبوة فنذكر منها ما يلي على سبيل المثال :

١ – انشقاق القمر :

لقـــد أيد الحق تبارك وتعالى رسوله ﷺ في دعواه الرسالة بمعجزة انشقاق القمر كما جاء في قوله تعالى﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ [١] فحينما سأل كفار مكة الرسول أن يأتيهم بآية تدل على صدقه فأراهم القمر وقـــد انشـــق إلى نصفين حتى رأوا جبل حراء بينهما ، وقد روى حديث انشـــقاق القمر جماعة من الصحابة منهم : أنس ، وابن مسعود ، وعلي ، وحذيفـــة بـــن الـــيمان ، وجبير بن مطعم ، وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين .

٢ – تسبيح الحصى :

فقد روي أن الرسول ﷺ كان جالساً مع أصحابه وفيهم أنس بن مالك

---

[١] سورة القمر الآية (١) .

راوي الحديث ، فأخذ كفاً من حصى فسبحن في يده حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن في يد أبي بكر فسبحن ثم في يد عمر فسبحن ثم في يد عثمان فسبحن – رضي الله عنهم أجمعين – ثم صبهن في أيدينا فما سبحت .

٣ – حنين الجذع :

حديثه مشهور متواتر ، فقد كان النبي ﷺ يخطب على ساق من نخل فلما صنع له منبراً انتقل إليه فسمع كل من في المسجد حنين الجزع وصوته حتى كاد أن ينشق آسفاً على فراق النبي ﷺ ، فضمه النبي ﷺ فصار الجذع يئن أنين الصبي .

٤ – شفاؤه لبعض الأمراض :

فقد رد ﷺ عين قتادة بن النعمان الذي كان يتقي بوجهه السهام عن النبي ﷺ في غزوة أحد حينما دعا له ﷺ قائلاً : اللهم وق عين قتادة كما وقى وجه نبيك فاجعلها أحسن عينيه ، فكانت كما قال ﷺ .

هذا بالإضافة إلى الكثير من معجزاته ﷺ كرميه وجوه الكفار يوم بدر وتسليم الشجر والحجر ، وإطعامه العدد الكثير بالطعام القليل ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ ، ومن أراد المزيد فعليه بكتب السيرة النبوية .

عموم رسالته ﷺ

لقــد كــان العالم قبل بعثة المصطفى ﷺ يذخر بالرذائل والشرور ويشيع فيه العادات القبيحة والعقائد الباطلة والحروب الطاحنة التي طمست معــالم الحــق ، فكان العالم في حالة من الاضطراب والفوضى في جميع النواحي الدينية والخلقية والاجتماعية والسياسية .

أما من الناحية الدينية فكان اليهود على دين التشبيه فكانوا يشبهون الله تعــالى بمخلوقاته ، وقد حرفوا التوراة التي نزلت على موسى وادعوا أنهم شعب الله المختار فكانوا يعملون على نشر الإباحية في العالم .

أما النصارى فقد كانوا حيارى ضالين يعتقدون أن المسيح ابن الله وكــان الفرس يعبدون إلهين : إله للخير ويرمزون له بالنور ، وإله للشر ويرمزون له بالظلمة ، وكان الهنود أيضاً يعبدون البقر ويعبدون الأشجار والأحجار .

فكانــت هذه الخرافات من الناحية الدينية أن انعكست على الناحية السياســية والخلقية والاجتماعية ، فقد عم الفساد وأصبح الناس لا يميزون بين خير وشر ولا بين فضيلة ورذيلة ، وظهرت المذاهب الإباحية .. ومع فســاد العالم إلى هذه الدرجة فقد كان هناك عناصر خير وإصلاح في كل أمــة منهم الحنفاء في الجزيرة العربية ، فقد كانوا يتطلعون إلى من ينقذهم مــن هــذا الفساد والضلال فكان من رحمة الله تعالى أن أرسل محمد ﷺ ليخرج الناس جميعاً من الظلمات إلى النور .

ولهذا يقول صاحب المقاصد أنه ﷺ مبعوث إلى الثقلين لا إلــــى

العــرب خاصـــة علـــى ما زعم بعض اليهود والنصارى زعماً منهم أن الاحتـــياج إلى النبي إنما كان للعرب خاصة دون أهل الكتابين ورد بما مر من احتياج الكل إلى من يجدد أمر الشريعة ، بل احتياج اليهود والنصارى أكثر لاختلال دينهم بالتحريفات وأنواع الضلالات مع ادعائهم إنه من عند الله تعالى .

والدلـــيل علـــى عمـــوم بعثته ﷺ وكونه خاتم النبيين لا نبي بعده ولا نسخ لشريعته هو أنه ﷺ ... ادعى الرسالة وأيده الله تعالى بالمعجزة ، وكـــل من ادعى الرسالة وأيده الله تعالى بالمعجزة يكون رسول الله تعالى إذن ســـيدنا محمـــد ﷺ رسول الله تعالى . أما إنه ادعى الرسالة فهو ثابت بالتواتر وأما تأييد الله له بالمعجزة فقد ثبت بالتواتر أنه أتى بالقرآن وأخبر عـــن المغيبات وأظهر أفعالاً خارقة للعادة بلغت في جملتها حد التواتر كما مر بنا فتكون النتيجة أنه رسول الله تعالى .

وإن كـــتابه المعجـــزة الخالدة الباقية شاهدة على صدقه بعد وفاته إلى يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ [١] ويقول ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾ [٢] ، ويقول تعالى ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ [٣] ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ [٤] .

---

[١] سورة الأعراف الآية (١٥٨) .
[٢] سورة سبأ الآية (٢٨) .
[٣] سورة الأنعام الآية (٩) .
[٤] سورة الأحزاب الآية (٤٠) .

وقولـــه ﷺ أنا العاقب فلا نبي بعدي ويلزم منه ختم المرسلين لأن ختم الأعم يلزمه ختم الأخص .

وقوله ﷺ : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلـــى قومـــه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود " وفي إثبات عمومها رد علـــى الذيـــن يقولون بأن الرسول ﷺ مرسل للعرب خاصة استناداً لقوله تعـــالى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ فهذه الآية تحكي حال الأنبياء قبله ﷺ .

ومـــا ســـبق هـــو المعـــتمد في إثبات نبوته ﷺ وإلزام الحجة على المجادل والمعاند وهناك مسالك أخرى تقويه لما سبق وإرشاداً لطالب الحق

الأول : أنه قد اجتمع فيه من الأخلاق الحميدة والأوصاف الشريفة والســـير المرضية والكمالات العلمية والعملية ، والمحاسن البديعة الراجعة إلى النفس والبدن والنسب والوطن ، ما يجزم العقل بأنه لا يجتمع إلا لنبي.

الثانـــي : أن مـــن نظر إلى شريعته ﷺ ورأى ما اشتملت عليه من الاعـــتقادات والعـــبادات والسياســـات والآداب وعلـــم ما فيها من دقائق الحكمـــة علم قطعاً أنها ليست إلا وضعاً إلهياً ووحياً سماوياً والمبعوث بها ليس إلا نبياً .

الثالث : مواجهته للعالم أجمع بمبادئ الإسلام حتى انتصرت ، فقد قام وحده ﷺ يدعو إلى الله تعالى مع ضعفه وفقره وقلة أعوانه ، وقد واجه الـــناس جمـــيعاً ، جموع العرب من الجاهلين وصناديد قريش والقياصرة والأكاسرة ، وسفه أحلامهم وضلل آراءهم ، وأبطل مللهم ، وهدم دولهم ، وظهر دينه على كل الأديان وانتشر في الآفاق والأقطار ، وشاع في

المشارق والمغارب مع ما لاقى من معارضة وإيذاء واضطهاد ، بل وصل الأمــر إلى حالة من المقاطعة له ﷺ ولأهله من بني هاشم ، حتى أن عمه أبــو طالــب قد كلمه أن يرجع عما هو عليه رحمة بأهله ، إن كان الأمر طلــباً لرياســة أو لزعامة فقال والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر فــي يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته إلا أن يظهره الله أو أهلك دونه ، فعلم بهذا أنه مؤيد من الله تعالى وأنه نبي الله قام يدعو بأمر الله إلى الله تعالى .

الرابع : النصوص الواردة في كتب الأنبياء المتقدمين المنقولة إلى العربي المشهورة فيما بين أممهم ، أما في التوراة فمنها ما جاء في السفر الخــامس ، جاء الله من طور سيناء وأشرف من سيعير واستعلن من جبال فاران يريد الأحبار عن إنزال التوراة على موسى بطور سيناء ، والإنجيل على عيسى بسعير فإنه كان يسكن من سعير بقرية تسمى ناصرة ، وإنزال القرآن الكريم على محمد بمكة ، فإن فاران في طريق مكة قبل العدن [١] بميليــن ونصــف وهو كان المنزل وقد بقى اليوم على يسار الطريق من العراق إلى مكة وهذا ما ذكر في التوراة أن إسماعيل أقام بريه فاران يعني بادية العرب .

ومنها ما جاء في الإنجيل في الإصحاح الرابع عشر " أنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم ويعطيكم فارقليطاً ليكون معكم إلى الأبد ، والفارقليط روح الحــق واليقين ، وأما في الزبور ، فقوله تقلد أيها الجبار السيف فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك وسهامك مسنونة والأمم يخرون

---

[١] المراد بالعدن : المساكن بمكة لأنها محل الإقامة .

تحتك ، وأمثال هذا كثير في كتب الأنبياء المتقدمين بذكرها الواقفون على كتـــبهم ، ولا يقدر المخالف على إنكارها وصرفها إلى ملك أو نبي آخر ، وقـــد أخبر القرآن الكريم وهو حق من عند الله تعالى أن عيسى عليه السلام بشر بمحمـــد ﷺ في قوله تعالى ﴿ **وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رســـول الله إليكم ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** ﴾ [١] .

المنكرون لنبوته ﷺ

يقول صاحب المقاصد أنكر المشركون والنصارى والمجوس ومن يجـــري مجـــراهم نبوة محمد ﷺ بغياً منهم وحسداً وعناداً ولدداً من غير تمســـك بشبهة ، وأكثر اليهود أنكروا نبوته لأنهم لم يعترفوا بنسخ شريعة موســـى . يقول صاحب المواقف : واعلم أن المنكرين لبعثته عليه السلام خاصة قومان :

أحدهما : القادحون في معجزته كالنصارى وقد مر ما فيه كفاية .

ثانـــيهما : الـــيهود إلا العيسوية فإنهم سلموا بعثته لكن إلى العرب خاصة لا إلى الخلق كافة [٢] .

وهكذا نلاحظ أن المنكرين لنبوة سيدنا محمد ﷺ طوائف ثلاث :

الطائفة الأولى : المشركون والنصارى والمجوس وهؤلاء ينكرون نبوته عناداً وحسداً ويمارون في معجزاته .

---

[١] سورة الصف الآية (٦) .

[٢] المواقف (ص ٣٥٧) .

الطائفـــة الثانية : أكثر اليهود وهؤلاء ينكرون نبوته لأنهم يمنعون نسخ شريعة موسى عليه السلام .

الطائفة الثالثة : العيسوية ، وهم فرقة من اليهود أتباع أبي عيسى ابـــن يعقـــوب الأصـــفهاني ، وهؤلاء يعترفون بنبوته ﷺ لكن إلى العرب خاصة [١] .

الرد على هذه الطوائف :

أمـــا الطائفـــة الأولـــى فقولهم باطل بداهة وذلك بإثبات نبوته ﷺ بالمعجـــزة ، وقـــد مـــر دلـــيل ثبوته وأيده الله تعالى بالمعجزات المعنوية والحســـية ، وكـــل من ادعى النبوة وأيده الله تعالى بالمعجزات يكون نبياً حقاً ، فمحمد ﷺ نبياً حقاً ، فحجة هؤلاء باطلة .

أما الطائفة الثانية ، وهم أكثر اليهود فهم ينكرون نبوته ، لأن النسخ باطل عندهم وتمسكوا بدليل نصه هكذا : لو كان محمد نبياً للزم نسخ دين موسى لكن نسخ دين موسى محال .

أما دليل الملازمة فلأن شريعته مخالفة لشريعة من قبله من الأنبياء باتفاق منا ومنكم ، وأما بطلان التالي فلأن النسخ محال عندنا لدليلين :
الدليل الأول : صورته هكذا :

لو كان نسخ الأحكام الشرعية جائزاً للزم الجهل أو البداء على الله تعـــالى ، لكن التالي بشقيه باطل ، إذن بطل جواز نسخ الأحكام الشرعية وثبت استحالة النسخ ، أما دليل الملازمة ، فإن النسخ إن لم يكن لمصلحة

---

[١] الشهرستاني : الملل والنحل (٢ / ٢٠ ، ٢١) .

فعبث وإن كان لمصلحة لم يعلمها عند شرعية الحكم المنسوخ فجهل ، وإن كان لمصلحة علمها وأهملها أولاً ثم راعاها ثانياً فبداء ، أما بطلان التالي فظاهر ، لأن الجهل والبداء نقص والنقص محال عليه تعالى فيكون النسخ محال .

والبداء كما يقول صاحب المقاصد هو الندم عما كان يفعل أو هو استفادة علم ما لم يكن ومن أحاط بما لم يكن محيطاً به يقال بدالة والجواب عن الدليل السابق كما يقول صاحب المقاصد أيضاً : أنه – أي النسخ – لمصلحة تجددت وحصلت بعد ما لم تكن حاصلة فإن المصالح تختلف باختلاف الأزمان والأحوال فرب دواء يصلح في الصيف دون الشتاء أو لشخص دون شخص آخر حسب الأحوال واختلاف الأمراض ، ولهذا ورد في التوراة أن آدم أمر بتزويج بناته من بنيه ثم نسخ وفاقاً وهذا إقرار منهم بالنسخ .

ويقرر صاحب المقاصد لهم وجهاً ثانياً لهذا الدليل فيقول :

- أن الحكم إما مؤقت مثل صم غداً فنفيه بعد ذلك لا يكون نسخاً ، وإما مؤبد مثل صم أبداً فنسخه تناقض بمنزلة قولك الصوم واجب أبداً وليس بواجب ، وإما مرسل لا توقيت فيه ولا تأبيد وحينئذ فإما أن يعلم الله تعالى استمراره أبداً فلا يرتفع للزوم الجهل أو إلى غاية ما فلا رفع بعدها ولا نسخ .

والجواب عن هذا الوجه : أن الحكم مرسل عن توقيت الوجوب وتأبيده والمعلوم عند الله تعالى استمرار الوجوب إلى غاية هي وقت نسخه ورفعه ولا تناقض في ذلك سواء كان الواجب مؤقتاً أو مؤبداً بمنزلة قولك

صـــوم الغد أو الأبد واجب حيناً دون حين وإنما التناقض في رفع الوجوب بعد تأبيده ، كما إذا قيل الوجوب ثابت أبداً ثم نسخ فيكون زمان لا وجوب فيه وهذا لا نزاع في امتناعه .

الدليل الثاني لليهود : قالوا يمتنع نسخ شريعة موسى عليه السلام لوجهين:

الوجـــه الأول : أن موسى عليه السلام أخبر بعدم نسخ دينه وخبره صادق لكونه نبياً ، إذن نسخ دين موسى باطل ، أما كونه أخبر بعدم نسخ دينه فقالوا أنه تواتـــر النص منه على تأبيدها مثل تمسكوا بالسبت أبداً وهذه شريعة مؤيدة مادامت السموات والأرض .

والجواب على هذا الوجه : أن هذا الكلام افتراء على موسى عليه السلام ، ودعـــوى تواتره مكابرة ، لأنه لو صح لما ظهرت المعجزات على عيسى ومحمـــد علـــيهما الصـــلاة والسلام ، فلو كان الكلام متواتر عنه لأباح به اليهود في زمن عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام احتجاجاً عليهم ، ولا أبـــاحوا به لاشتهر لتوفر الدواعي على نقله ، إذن فلا تواتر أصلاً ، كيف وقد اختلفه ابن الراوندي لليهود ، وقد ظهرت المعجزات على يدي عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وظهورها يدل على كذب اليهود في قولهم بتأبـــيد شـــريعة موســـى عليه السلام على أنه كثيراً ما يعبر بالتأبيد والدوام على طول الزمان .

الوجـــه الثاني : قالوا أما أن يكون موسى قد صرح بدوام شريعته فـــيدوم أو بانقطاعهـــا فـــيلزم تواتره لكونه من الأمور العظام التي تتوافر الدواعـــي على نقلها ولم تتواتر أو سكت عن الدوام والانقطاع فيلزم أن لا يتكرر ولا ينفرد إلى أوان النسخ وقد تقرر .

والجواب عن هذا الوجه : هو أن موسى عليه السلام صرح بدوام شرعه إلـــى ظهور شرع آخر ينسخه ، يرسل به نبي يأتي من بعده ولم ينقل ذلك تواتـــراً ، إما لقلة الدواعي من اليهود لنقله لما فيه من الحجة عليهم ، وإما لقلـــة الناقليـــن في بعض الطبقات المعتبرة كثرتها في التواتر لأن اليهود جرت لهم وقائع ممن لم يحصل التواتر بنقله وذلك في زمن بختنصر فإنه قتلهم وأفناهم إلا من شذ منهم .

أمـــا الطائفـــة الثالثة : وهم العيسوية من اليهود وبعض النصارى الذين قالوا : إن رسول الله ﷺ نبي ولكنه مرسل إلى العرب خاصة .

الرد عليهـــم :

نقـــول أنهـــم لمـــا سلموا بصحة نبوته بالأدلة القاطعة والمعجزات الـــباهرة وجب عليهم أن يعترفوا بأنه ﷺ مبعوث إلى الناس كافة ، والدليل علـــى عمـــوم بعثـــته وكونـــه خاتم النبيين لا نبي بعده وليس هناك نسخ لشريعته ، هو أنه ﷺ ادعى ذلك بحيث لا يحتمل التأويل وقد أيده الله تعالى بالمعجـــزة وقد شهد القرآن الكريم المعجز بذلك قطعاً ، فالآيات الدالة على كونه مبعوثاً إلى الناس كافة كثيرة منها قوله تعالى ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس** ﴾ والآية التي تدل على أنه مرسل إلى الثقلين قوله تعالى ﴿ **قل أوحي إليَّ أنه اســـتمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا** ﴾ .

أما ما يدل على كونه خاتم الأنبياء فقوله تعالى ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ .

وقولـــــه تعـــالى ﴿ **وهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ .

وقوله ﷺ : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود " .

وقوله أيضاً : " أنا العاقب فلا نبي بعدي " ويلزم منه ختم المرسلين لأن ختم الأعم يلزمه ختم الأخص .

ولهــذا يقــول صاحب المقاصد : وأجمع المسلمون على أن أفضل الأنبــياء محمــد لأن أمته خير الأمم لقوله تعالى ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للـــناس** ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ **وكذا جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ وتفضيل الأمة من حيــث أنهـــا أمـــة تفضيل للرسول الذي هم أمته ولأنه مبعوث إلى الثقلين وخـــاتم الأنبياء والرسل ومعجزته الظاهرة الباهرة باقية على وجه الزمان وشـــريعته ناسخة لجميع الأديان وشهادته قائمة في القيامة على كافة البشر إلى غير ذلك من خصائص لا تعد ولا تحصى .

عصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام

بات واضحاً أن الرسل هم الوسطاء بين الله تعالى وبين عباده ، لأنهم يقومون بتبليغ أوامر الله تعالى ونواهيه ، وتعليم الخلق ما خفي عليهم وكانوا في حاجة إليه ، كصفات الخالق ﷻ وما يتعلق بالعالم الأخروي .

لهذا فقد امتازوا عن بقية أفراد النوع الإنساني بوجوب ما أمروا بتبليغه إلى الخلق والصدق ، والفطانة وسلامة أبدانهم عن المنفرات والعصمة والأمانة ويستحيل عليهم ضد هذه الصفات ، ويجوز في حقهم جميع الأعراض البشرية التي لا تخل بالمروءة ولا تؤدي إلى نقص في مراتبهم أو التنفير منهم .

وسوف نقصر حديثنا هنا عن العصمة .

والعصمة في اللغة المنع ، وجاء في مختار الصحاح مادة عصم ، العصمة الحفظ وقد عصمه يعصمه بالكسر عصمة فانعصم ، واعتصم بالله أي امتنع بلطفه من المعصية [١] .

أما في الاصطلاح : فهي أن لا يخلق الله في المكلف الذنب مع بقاء قدرته واختياره ، وهو معنى قولهم هي لطف من الله تعالى بالعبد يحمله على فعل الخير ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار .

أما عند الحكماء ، فهي ملكة تمنع العبد من الفجور ، وقالوا إن هذه الملكة تحدث وترسخ في النفس بسبب العلم بعيوب المعاصي وفضائل الطاعات وتقوي في الأنبياء بتتابع الوحي إليهم .

---

[١] الإمام محمد بن عبد القادر الرازي (ص ٤٥٩) .

والحــق أن العصمة حفظ من الله تعالى للرسل من أن يكفروا حتى قبل الرسالة وأن يرتكبوا الكبائر مطلقاً وأن يتعمدوا الصغائر بعد الرسالة ، فــالله تعالى عصمهم من ذلك يعني منعهم من فعل هذه الأشياء وحتى على رأي المعــتزلة المثبتيــن للاختيار فهم يقولون إن الله تعالى يفعل لطفاً في النبــي لا يكــون له داع إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية فيكون النبي ممنوعاً بذلك اللطف من ارتكاب المعصية وترك الطاعة [١] .

فالرســل علــيهم الصــلاة والسلام معصومون عما ينافي المعجزة كــالكذب فيما يتعلق بالتبليغ ، وهذا محل إجماع من المسلمين لأن المعجزة دلــت علــى صــدقهم في أنهم يبلغون عن الله تعالى ودلالة المعجزة على صــدقهم عقلــية فيجب أن يكونوا صادقين في أنهم يبلغون عن الله تعالى عقــلاً أمــا صــدقهم فــي تبلــيغ الأحكام الشرعية فهو داخل في الأمانة ودليلها شرعي .

والمعاصــي : إما أن تكون كفراً أو غيره ، والمعاصي التي غير الكفر إما أن تكون كبيرة أو صغيرة ، الكبيرة مثل القتل والزنا ، والصغيرة إمــا أن تكــون منفرة مثل أخذ حبة من البائع بعد الشراء ، وإما أن تكون غير منفرة كالكذبة .

فالأنبــياء معصــومون عن الكفر قبل الرسالة وبعدها ، وقد جوزه بعــض الخــوارج بــناء على تجويزهم الذنب مع قولهم بأن كل ذنب كفر وكلام بعض الخوارج هذا لا أساس له من الصحة فهو خطأ .

---

[١] الدكتور محي الدين الصافي : النبوات والسمعيات (ص ٧٢) .

كـــذا جـــوز الشيعة أن يظهر الأنبياء الكفر تقية أي خوفاً من القتل وهـــذا خطـــأ ، فهم محجوجون بأن أولى الأوقات بالتقية هو وقت إظهار الدعوة لكثرة المعارض وضعف الدواعي ومع ذلك لم يظهر الأنبياء الكفر

أمـــا الكبائر فهم معصومون عنها عمداً وسهواً بعد البعثة وكذا عن الصغائر المنفرة لإخلالها بالدعوة إلى الاتباع .

يقـــول صـــاحب المقاصد : ولهذا ذهب كثير من المعتزلة إلى نفي الكـــبائر قـــبل البعـــثة أيضاً وبعض الشيعة إلى نفي الصغائر ولو سهواً ، والمذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقاً والصغائر عمداً لا سهواً ، لكن لا يصرون ولا يفرون بل ينتبهون فيتنبهون ، وذهب إمام الحرمين من أهل السنة وأبو هاشم من المعتزلة إلى تجويز الصغائر عمداً .

الدليل على ثبوت العصمة للرسل

إن الدلـــيل علــى ثبوت العصمة عن اقتراف الذنوب وصدقهم في دعوى الرسالة وكل ما أمروا به ودعوا إليه ، هو أنه لو صدر عنهم الذنب للزم أمور كلها منتفية :

أولاً : لــو صـــدر مــنهم الذنب لحرم اتباعهم لكن اتباعهم واجب بإجماع العلماء وبقوله تعالى ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ [١]

ثانياً : لو أذنبوا لردت شهادتهم ، والتالي باطل بالإجماع فبطل المقدم ، أما الملازمـــة فثابـــتة بالإجماع وبقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاســـق بنبأ فتبينوا** ﴾ [٢] ، وأما بطلان التالي فإن من لم تقبل شهادته في الأمور الصغيرة فكيف تقبل في أمور الدين القائمة إلى يوم الدين ؟

ثالثاً : وجوب منعهم وزجرهم لعموم أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لكنه منتق لاستلزامه إيذائهم المحرم بالإجماع ، ولقوله تعالى ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة** ﴾ [٣] .

الرابع : استحقاقهم العذاب والطعن واللوم والذم لدخولهم تحت قوله تعالى ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً** ﴾[٤]

وقوله تعالى ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ [٥]

وقوله تعالى ﴿ **لم تقولون ما لا تفعلون** ﴾ [٦]

---

[١] سورة آل عمران الآية (٣١) .
[٢] سورة الحجرات الآية (٦) .
[٣] سورة الأحزاب الآية (٥٧) .
[٤] سورة الجن الآية (٢٣) .
[٥] سورة هود الآية (١٨) .
[٦] سورة الصف الآية (٢) .

وقولــــه تعــالى ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾ [١] ، ولكن ذلك منتف بالإجماع ، ولكونه من أعظم المنفرات .

الخـــامس : عــدم نــيلهم عهد النبوة لقوله تعالى ﴿ **لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ [٢] ، فإن المراد به النبوة أو الإمامة التي دونها .

الســادس : كونهــم غير مخلصين لأن المذنب قد أغواه الشيطان والمخلص ليس كذلك لقوله تعالى حكاية ﴿ **ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك مــنهم المخلصــين** ﴾ [٣] ، لكن اللازم منتف بالإجماع وبقوله تعالى في إبراهيم ويعقوب ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ [٤]، وفي يوسف ﴿ **إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ [٥] .

السابع : كونهم من حزب الشيطان ومتبعيه واللازم قطعي البطلان

الثامن : عدم كونهم مسارعين في الخيرات ومعدودين عند الله من المصــطفين الأخيار إذ لا خير في الذنب لكن اللازم منتق لقوله تعالى في حــق بعضــهم أنهــم كــانوا يســارعون في الخيرات ، وأنهم عنده لمن المصطفين الأخيار [٦] .

ثم قال صاحب المقاصد والمواقف : وأنت تعلم أن دلالتها في محل الــنزاع وهي عصمتهم عن الكبيرة سهواً وعن الصغيرة عمداً لأن وجوب الاتباع إنما هو فيما يتعلق بالشريعة وتبليغ الأحكام ، وبالجملة فيما ليس

---

[١] سورة البقرة الآية (٤٤) .
[٢]
[٣] سورة الحجر الآية (٣٩ ، ٤٠) .
[٤] سورة ص الآية (٤٦) .
[٥] سورة يوسف الآية (٢٤) .
[٦] انظر شرح المقاصد (٢ / ١٤٣) ، والمواقف (ص ٣٥٩) .

بــزلة ولا طــبع فــإن استحقاق العذاب ورد الشهادة إنما يكون بكبيرة أو إصرار على صغيرة من غير إثابة ورجوع ، وبمجرد ارتكاب كبيرة سهواً أو صــغيرة ولــو عمداً لا يعد المرء من الظالمين على الإطلاق ولا من الذيــن أغواهــم الشيطان ، هذا ما قاله الإمام التفتازاني إلا أن كلامه إنما يكون في حق آحاد الأمة ، أما الأنبياء فلهم شأن آخر لأن الله تعالى أمرنا باتــباعهم فكــيف يتركهم الله تعالى يرتكبون الكبيرة ولو سهواً لكي يتبعهم الــناس في هذا . مع العلم بأن أمر السهو والنسيان لا يعرفه المخاطب ، وإنمــا يــأخذ الحكــم من النبي من قوله أو فعله أو تقريره ، وهو مأمور باتــباعه في هذا ، فلو جوز ارتكاب النبي كبيرة سهواً أو صغيرة عمداً ، جاز اتباع الناس له في هذا ، اللهم إلا أن يشترط تنبيه الأنبياء في الحال ، وهــم ينبهون المخاطبين ، أما النسيان وهو مخالفة الصواب بلا رجوع له أصــلاً فهــو ممتنع عليهم في البلاغات قبل تبليغها قولية كانت أو فعلية ، وأما بعد التبليغ فجائز عليهم النسيان إذ من بلغه النبي وجب عليه أن يحفظ ما بلغه الناس ونسيان المنسوخ لا مانع منه قبل التبليغ أو بعده .

أما القائلون بجواز المعصية على الرسل :

وهم المخالفون الذين ذهبوا إلى جواز صدور المعاصي عن الأنبياء بعــد البعــثة سهواً ، وجواز صدور الصغائر عنهم عمداً ، محتجين بآيات تلتمس للاستدلال بها على جواز المعاصي على الأنبياء من مثل قوله تعالى ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ ، ومثل قوله تعالى ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ ، ومثل قوله تعالى ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾

يقول صاحب المقاصد : " احتج المخالف بما نقل من أقاصيص الأنبياء وما شهد به كتاب الله من نسبه المعصية والذنب إليهم ومن توبتهم واستغفارهم وأمثال ذلك " (١) .

والجواب عنه إجمالاً : فهو أن ما كان منها منقولاً بخبر الآحاد فهو محـــل أخذ ورد لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء ، وما ثبت منها تواتراً فمصروف عن ظاهره إن أمكن حمله ، بل ونحملـــه على محمل آخر لدلائل العصمة ، وما لم نجد له محيصاً حملناه على أنه كان قبل البعثة أو من قبيل ترك الأولى أو صغائر صدرت عنهم سهواً ، ولا ينافيه تسميته ذنباً في مثل قوله تعالى ﴿ ليغفر لك ما تقدم من ذنبك ﴾ ولا استغفار منه ولا الاعتراف بكونه ظلماً منهم وذلك لعظمة منهم لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فلذلك يسمى ترك الأولى ، وارتكاب صـــغيرة ســـهواً ذنـــباً بالنسبة لهم ويستغفرون منه ويعترفون بكونه ظلماً هضـــماً لأنفسهم وكسراً لها بأنها ارتكبت ذنباً تحتاج للاستغفار على سبيل الابتهال والتضرع ليعفو عنهم ربهم تبارك وتعالى .

وأما الجواب التفصيلي عن ما نسب إلى الأنبياء فهو ما يأتي :

أولاً : ما نسب إلى آدم عليه السلام من أنه عصى وغوى وأزله الشيطان وخـــالف النهي عن أكل الشجرة واعترف بظلمة نفسه وعوتب قولاً وفعلاً بقوله تعالى ﴿ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ﴾ وبنزع اللباس والإخراج من الجنة ثم تاب الله تعالى واجتباه .

---

(١) الإمام سعد الدين التفتازاني : شرح المقاصد (٢ / ١٤٣) .

الجواب : أن ذلك كان قبل البعثة كيف ولم تكن له في الجنة أمة وكان عن نسيان لقوله تعالى ﴿ فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ أو كان زلة وسهواً حيث ظن أن المنهي عنه شجرة بعينها وقد قرب أخرى من جنسها ، وإنما عوتب لترك التيقظ والتنبه .

ثانياً : الشبهة في حق نوح عليه السلام فهو أن قوله تعالى ﴿ يا نوح أنه ليس من أهلك ﴾ تكذيب له في قوله تعالى ﴿ إن ابني من أهلي ﴾ .

والجواب : أنه ليس للتكذيب بل للتنبيه على أن المراد بالأهل في الوعد هم الأهل الصالحون ، والمعنى أنه ليس من أهل دينك أو أنه أجنبي عنك وإن أضفته إلى نفسك بأبنائك ، لما روي من أنه كان ابن امرأته والأجنبي إنما يعد من آل النبي إذا كان له عمل صالح .

ثالثاً : الشبهة في حق إبراهيم عليه السلام فهو أنه كذب في قوله تعالى حكاية عنه ﴿ هذا ربي ﴾ مشيراً إلى النجم ، وفي قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وفي قوله تعالى حكاية عنه ﴿ إني سقيم ﴾ .

والجواب : أما عن الأولى فهو أنه قال هذا الكلام على سبيل الفرض مجاراة لهم ليبطل لهم أن الكواكب آلهة كما كانوا يعتقدون والمعنى هذا ربي أي في زعمكم فلما أفل قال ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ .

وأما عن الثانية : فهو أنه قالها على سبيل التعريض والاستهزاء .

وأما عن الثالثة : فهو أنه على أن به مرض الحزن والهم من عنادهم أو الحمى على ما قيل .

رابعاً : الشبهة في حق يوسف عليه السلام وهي المشار إليها بقوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ وجعل السقاية في رحل أخيه ورضاه بسجود

إخوته وأبويه له .

والجواب عن هذا : أن ذلك كان قبل البعثة أو المراد وهم بها لولا أن رأى برهان ربه أو المراد كما يقول صاحب المقاصد الميلان المذكور في الطبيعة البشرية لا الهم بالمعصية والقصد إليها .

وقال ابن كثير : قيل المراد بهمه خطرات حديث النفس ثم ساق حديثاً عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإنما تركها من جرائي فإن عملها فاكتبوها بمثلها وقيل هم يضربها [١] .

ولذلك فقد قال صاحب المقاصد : وبالجملة فلا دلالة هنا على العزم والقصد إلى المعصية فضلاً عما يذكره الحشوية من الحشويات ، ولهذا ورد في هذا المقام من الثناء على يوسف ما ورد من غير أن يقع عليه زلة أو يذكر له استغفار وتوبة ، وأما جعل السقاية في رحل أخيه فقد كان بإذنه ورضاه ، بل بإذن الله تعالى ونسبة السرقة إلى الإخوة تورية عما كانوا فعلوا بيوسف مما يجري مجرى السرقة أو هو قول المؤذن والسجدة كانت عندهم تحية وتكرمة كالقيام والمصافحة أو كانت مجرد إغناء وتواضع لا وضع جهة .

خامساً : الشبهة في حق موسى ﷺ ، وهي قتل القبطي وتوبته عنه واعترافه بكون ذلك من عمل الشيطان .

والجواب عن هذه الشبهة : أن ذلك كان خطأ وقبل البعثة ، فلم

---

[١] الإمام ابن كثير : التفسير العظيم (٢ / ٤٧٤) .

يقصد القتل وإنما قصد دفعه بعيداً عن الإسرائيلي فمات من قوة الدفع ، أما إذنه للسحرة في إظهار السحر بقوله : ألقوا ما أنتم ملقون فليس رضاء به بل الغرض إظهار إبطاله وإظهار معجزته .

سادســاً : الشبهة في حق يونس عليه السلام وهي ما يشعر به قوله تعالى ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لا تقدر عليه ﴾ .

الجــواب هو : أن المغاضبة كانت على الكفار المعاندين لا على الله تعالى ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ فلا يوجب شكاً في القدرة ، ومعنى الظلم في قوله : ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ ترك الأفضل وهو الصبر وهذا معنى قوله ﷺ ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ أي في ترك الصبر على معاندة الكفار .

ســـابعاً : الشــبهة في حق نبينا محمد ﷺ مثل ﴿ استغفر لذنبك ﴾ وقولـــه ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ هذا محمول على ما فرط منه من الزلة وترك الأفضل . وقوله ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ معناه فقــدان الشــرائع والأحكــام ، وقيل : إنه ضل في صباه في بعض شعاب مكـــة فـــرده أبو جهل إلى عبد المطلب ، وقيل : أنه ضل في طريق الشام حيـــن أتـــى بـــه أبو طالب ، وبالجملة لا دلالة على العصيان والميل عن الطريق الحق .

ولـــذا فقــد قـــال تعـــالى ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾ وقوله ﴿ **ووضـــعنا عنك وزرك** ﴾ مثل لما كان يثقل عليه قبل النبوة أو من عدم علمـــه بالشـــرائع والأحكام أو من تهالكه على الإسلام ، وقوله ﴿ **عفا الله عـــنك لـــم أذنـــت لهـــم** ﴾ تلطف في الخطاب وعتاب على ترك الأفضل وإرشاد إلى الاحتيـــاط في تدبير الخيرات ، وما روي من أنه قرأ بعـــــد

قولـــه ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ تلك الغرانيق العلى وإن شـــفاعتها لترتجي ، فلما أخبره جبريل بما وقع منه حزن وخاف خوفاً شديداً فنزله قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ .

فـــالجواب : أنـــه كان من إلقاء الشيطان لا تعمداً ، وقيل بل الغرانيق هي الملائكـــة وكان هذا قرآناً فنسخ وقيل معنى تمني النبي حديث النفس وكان الشـــيطان يوســـوس إلـــيه غير الهدى فينسخ الله دسائسه من نفسه ويهديه إلى الصواب .

يقـــول صـــاحب المقاصد : فإن قيل ما بال زلة حكيت بحيث تقرأ بـــأعلى الصوت على وجه الزمان مع أن الله غفار ستار وقد أمرنا بالستر على من ارتكب ذنباً ، قلنا ليدل على صدق الأنبياء وكون ما يبلغون الشئ بأمـــر مـــن الله مـــن غير إخفاء لشئ أو ليكون امتحاناً للأمم كيف يفعلون بأنبـــيائهم بعـــد الاطلاع على زلاتهم وليعلموا أن الأنبياء مع جلالة قدرهم وكـــثرة طاعاتهم كيف التجأوا إلى التضرع والاستغفار في أدنى زلة ، فإن الصغيرة ليست مما يقدح في الولاية والإيمان البتة أو تقع مكفرة لا محالة بحيث لا عتاب عليها ولا عقاب .

المنهج الذي اتبعه الرسل في هداية الأمم التي أرسلوا إليها :

ذكــرنا فــيما سبق حاجة النوع الإنساني إلى الرسل ، وأن حاجة النوع الإنساني إليهم كحاجة الروح إلى الجسد ، وأن بعثتهم حاجة حاجات العقــول البشــرية فلم تحصل رسالة أي نبي إلا وكانت الحاجة إليها ماسة والضرورة إليها داعية .

فمــنذ أن بدأت الإنسانية عهدها على ظهر هذه الأرض منذ هبوط آدم عليه السلام تحقيقاً للوعد الإلهي ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ، فقد كان هــذا البيان الأول لخطة بناء الحياة كما جاء في قوله تعالى ﴿ **فإما يأتينكم مــن هــدى فمــن اتــبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكــري فــإن له معيشــة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشــرتني أعمــى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك الــيوم تنســى ، وكذلــك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾ [١] .

فمن هذا البيان نلحظ أن الحق تعالى قد وعد بني الإنسان أن يرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . ولهــذا فقد كان أول عمل قام به الأنبياء مع أممهم هو تطهير الأرواح من دنــس الشــرك والضلال وإرشاد العقول إلى أن الإله الذي يجب أن يعبد ونلجــأ إليه في حاجاتنا هو الله سبحانه وتعالى المنفرد بالتصرف في الملك والملكوت ، المتصف بالكمالات المنزه عن النقائص ، المخالف للحوادث

---

[١] سورة طه الآيات (١٢٣ – ١٢٧) .

فعلـــى مدى الرسالات الإلهية كانت تلك الحقيقة هي من عهد آدم إلى خاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قالها نوح عليه السلام ﴿ **إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ [١]

وأعلـــنها إبراهيم الخليل أمام قومه : ﴿ **قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآبـــاؤكم الأقدمـــون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهديـــن . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين** ﴾ [٢]

وصـــدع بها موسى وهارون لفرعون وقومه ﴿ **قد جئتنا بآية من ربـــك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ [٣] .

ومـــن فوق جبل مكة وقف محمد ﷺ ينادي قائلاً إني نذير لكم بين يـــدي عـــذاب شديد ثم أعلنها القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ **قل إنما أعظكم بواحـــدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ [٤] .

هكذا كان الوحي الإلهي يقود الناس جميعاً إلى طريق الخير وسبيل الرشـــاد ، قـــال تعـــالى ﴿ **ولقـــد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ [٥] .

---

[١] سورة هود الآية (٢٥ ، ٢٦) .
[٢] سورة الشعراء الآيات (٧٥ – ٨٣) .
[٣] سورة طه الآية (٤٧ ، ٤٨) .
[٤] سورة سبأ الآية (٢٦) .
[٥]

ومـــع اخـــتلاف الناس وتفاوت مراتبهم واستعداداتهم فهم أنواع :
فمنهم الخواص ، وهم أصحاب النفوس العالية المستعدون لإدراك المعاني الراغبون في تحصيل اليقين .

وهـــذا النوع كانت الأنبياء تسلك في الدعوة إليه وهدايته إلى الدين الحق الحجج القطعية التي تدل على العقائد الصحيحة المزيلة للشبه .

ومـــنهم العـــوام ، وهـــم الذين ألفوا المحسوسات وتمسكوا بالعادات وليس عندهم الاستعداد الكافي لإدراك البرهان إلا أنهم لا عناد عندهم .

وهذا النوع كانت الأنبياء تختار في الدعوة إليه طريقاً يناسب حاله وذلـــك بالعـــبر النافعة التي تناسب استعدادهم وترغبهم في إجابة الرسول وتصديقه في قوله .

ومـــنهم من امتاز عن العوام ، فكان إدراكهم أرقى إلا أن نفوسهم تدنست بصـــفات رديـــئة من خبث وعناد وتعصب وتقليد ضال حتى أصبحت لا تخضع لسلطان الحق بل تجادل وتعاند [١] .

وهـــذا الفـــريق كانـــت الأنبياء تسلك معه طريق المجادلة بأحسن الطـــرق لتلين عريكته وتزول شكيمته ، فكانوا يرفقون بهم ويختارون في الاســـتدلال أيسر الوجوه وأسهلها عليهم ، كما حصل من سيدنا إبراهيم مع قومــــه . فـــإذا أجـــاب الناس دعوة نبيهم إلى التوحيد ورجعوا عن عبادة الأوثـــان ، وعـــادوا إلـــى صوابهم أرشدهم نبيهم بعد ذلك إلى ما يذكرهم بعظمـــة ذلك الإله في أوقات مختلفة ، وإلى ما يرجعون إليه في معاملاتهم بعضهم مع بعض ، كما يذكرهم بأوامر الله تعالى ونواهيه .

---

[١] انظر الشيخ أبو دقيقة : مذكرات في علم التوحيد (٢٩٩) .

كمـــا كـــان كـــل نبي يطلب من قومه أن يقوموا أنفسهم بالأخلاق الفاضلة كالصدق والأمانة والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء .

كمـــا يشرح لهم ما يؤهلهم لرضا الله تعالى وما يعرضهم لعذابه ، مـــع توضيح ما أعد لهم في الدار الآخرة من النعيم المقيم إذا حافظوا على أوامر الله تعالى واجتنبوا ما نهى الله عنه .

وبالله التوفيق .

الملائكـــة

إن السمعيات هي الأمور التي يجب الاعتقاد بها عن طريق الكتاب والســنة والإجماع ، فهي لا تدخل في نطاق العقل الذي لا يستقل بإدراكها وهــي أمور كثيرة كالملائكة وما يقع بعد الموت من بعث وحشر وحساب وغــير ذلــك مما أخبر به الكتاب والسنة وانعقد عليه إجماع المسلمين من أمور الغيب ، وعلى هذا :

فالملائكـــة : عالم غيبي غير محسوس قادر على التشكل والظهور بأشــكال مخــتلفة حسنة شأنها الطاعة والعبادة وهم عباد مكرمون قادرون علـــى تحمل ما كلفوا به من أفعال عظيمة وعجيبة بقوة خارقة أودعها الله تعالى فيهم وقد ثبت وجودهم بالكتاب والسنة والإجماع ، فمنكره كافر[١]

أمـــا القرآن الكريم فقد جاء ذكر الإيمان بالملائكة كركن من أركان العقــيدة في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿ **آمن الرسول بمـــا أنـــزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفــرق بيـــن أحـــد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾ [٢] ، وقوله تعالى ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغـــرب ولكـــن الـــبر مـــن آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ..** ﴾ [٣] .

وقال ﷺ في الحديث المتفق عليه حديث جبريل وسؤاله للنبي ﷺ

---

[١] الإمام علي بن أبي العز الحنفي : شرح الطحاوية (ص ٢٤٩) تحقيق أحمد شاكر الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ . وشرح البيجوري على الجوهرة (ص ١٥٥) .

[٢] سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

[٣] سورة البقرة الآية (١١٧) .

عــن الإيمــان فقــال " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " .

وعلى هذا يجب الإيمان إجمالاً بأن لله تعالى ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعــالى ، وتفصيلاً بمن ثبت كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ومالك ورضوان ، أو ثبت بالنور كحملة العرش والحفظة والكتبة وغيرهم ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ [١] .

بعض صفات الملائكة ووظائفهم :

لقد خلق الله تعالى الملائكة من نور وخلقهم متقدم على خلق الناس وذلــك كمــا جــاء في قوله تعالى ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ [٢] .

ودلــيل خلــق الملائكــة من النور كما جاء في الحديث الذي رواه الإمــام مســلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : " خلقت الملائكــة مــن نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم " [٣] . وللملائكة القدرة على التشكل بالصورة الطيبة كما أخبر القرآن الكريم عن تمثل جبريل عليه السلام للسيدة مريم عليها السلام بصورة بشر سوي قــال تعــالى ﴿ **فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً** ﴾ [٤] .

---

[١] سورة المدثر الآية (٣١) .
[٢] سورة البقرة الآية (٣٠) .
[٣] الإمام مسلم ، صحيح مسلم (٤ / ٢٢٩٤) .
[٤] سورة مريم الآية (١٧) .

والملائكة هم الذين يقومون بتبليغ وحي الله تعالى إلى رسله وأنبيائه قال ﷻ ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً** ﴾ [١] كما أنهم يتميزون بالدوام على الذكر والطاعة ، قال تعالى ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ [٢] ، والخوف من جلال الله تعالى ، يقول تعالى ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ [٣] ، كما اختصوا بالسرعة والقدرة العجيبة ، قال تعالى ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ [٤] .

والملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل بالأشكال الحسنة وهؤلاء الملائكة يوصفون بأنهم منزهون عن الطبيعة البشرية فلا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، فمن وصفهم بذكورة فسق ، ومن وصفهم بأنوثة كفر [٥] لقوله تعالى ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سنكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ [٦] ، وقوله تعالى ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً** ﴾ [٧] .

وهو رداً على من قال من الكفار إن الملائكة بنات الله وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإلى جانب ذلك

---

[١] سورة فاطر الآية (١) .
[٢] سورة الأنبياء الآية (٢٠) .
[٣] سورة النحل الآية (٥٠) .
[٤] سورة المعارج الآية (٤) .
[٥] الإمام إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري على الجوهرة (ص ١٥٧) .
[٦] سورة الزخرف الآية (١٩) .
[٧] سورة الإسراء الآية (٤٠) .

فإن لهم أعمالاً متعددة :

فمنهم : من ينزل بالوحي على الأنبياء والرسل هو جبريل عليه السلام ، فهو مبعوث الخالق إلى المرسلين ، قال تعالى ﴿ **قل نزله روح القدس من ربك بالحق** ﴾ [١] ، وقال تعالى ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ [٢] .

ومنهم : الموكل بالقيام على النبات والمطر والسحاب والرزق وهو ميكائيل عليه السلام ، يقول تعالى ﴿ **من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾ [٣] .

ومنهم المكلف بقبض الأرواح وهو عزرائيل عليه السلام وأعوانه ، يقول تعالى ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم** ﴾ [٤] ، وقوله تعالى ﴿ **حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون** ﴾ [٥] .

ومنهم من يقوم بسؤال الميت في قبره وهما منكر ونكير .

ومنهم حملة العرش وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ [٦] .

ومنهم الحافون حول العرش ، يقول تعالى ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ...** ﴾ [٧] .

---

[١] سورة النحل الآية (١٠) .
[٢] سورة الشعراء الآية (١٩٣ ، ١٩٤) .
[٣] سورة البقرة الآية (٩٨) .
[٤] سورة السجدة الآية (١١) .
[٥] سورة الأنعام الآية (٦١) .
[٦] سورة الحاقة الآية (١٧) .
[٧] سورة الزمر الآية (٧٥) .

ومن الملائكة الحفظة وهم جماعة من الملائكة عهد الله تعالى إليهم بحفظ خلقه من المضار ، يقول سبحانه وتعالى ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾ [١] .

وفي الحديث الذي رواه الإمام البخاري : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " .

أما الكتبة فهم الذين يحصون ويكتبون ما يصدر من العباد من قول أو فعل أو اعتقاد ولا يفارقون العبد إلا في حالات ثلاث : قضاء الحاجة ، والجماع والغسل ، يقول تعالى ﴿ **وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون** ﴾ [٢] .

فهم يعلمون الأفعال ويكتبوها ، فقد وصف الحق تعالى هؤلاء الملائكة بكونهم حافظين وكونهم كراماً وكونهم كاتبين وكونهم يعلمون ما تفعلون يقول النبي ﷺ : "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر " [٣] .

بالإضافة إلى حملة العرش كما جاء في قوله تعالى ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ [٤] . والحافون من حول العرش كما جاء في قوله تعالى ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ [٥] .

---

[١] سورة الرعد الآية (١١) .
[٢] سورة الانفطار الآيات (١٠ – ١٢) .
[٣] الحديث رواه الإمام البخاري ومسلم .
[٤] سورة الحاقة الآية (١٧) .
[٥] سورة الزمر الآية (٧٥) .

فهـؤلاء مداومــون على التحميد والتسبيح والتكبير والتهليل حول العرش ذاكرين الله تعالى بصفات الكمال والجلال .

ومــن الملائكــة خـزنة الجنة وهم الذين سوف يستقبلون عباد الله المثابيــن فــي الجــنة ويهنــئونهم بها ومعهم رضوان عليه السلام ، قال تعالى ﴿ **والملائكــة يدخلــون علــيهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ [١] .

ومــنهم ملائكــة الــنار وعلــى رأسهم مالك وهم موكلون بالكفار والعصــاة وهــم المســمون بالزبانــية ، قال تعالى ﴿ **فليدع نادية سندع الزبانية** ﴾ [٢] ، وقال تعالى ﴿ **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** ﴾ [٣] وقال تعالى في شأن الكفار وهم ينادونه ﴿ **ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ [٤] .

هــذا بالإضــافة إلى ملائكة الرحمة والملائكة السفرة والمقسمات والملائكة المدبرات والصافات والزاجرات ومنكر ونكير وغير ذلك كثير، فهــم جــند من جنود الله تعالى لا يعلمه إلا الله تعالى ، يقول تعالى ﴿ **وما يعلــم جــنود ربــك إلا هو** ﴾ ، لهذا يجب الإيمان بهذا العالم الغيبي الذي أخبرنا به القرآن الكريم وسنة الرسول الكريم ﷺ .

---

[١] سورة الرعد الآية (٢٤) .
[٢] سورة العلق الآية (١٧ ، ١٨) .
[٣] سورة المدثر الآية (٣١) .
[٤] سورة الزخرف الآية (٧٧) .

عصمة الملائكة

لقــد اتفق جمهور علماء المسلمين على عصمتهم وأنهم خلق ركبوا مــن الطاعــة وحدها وتساموا عن الشهوات وخلق هكذا شأنه فإنه لاشك معصــوم مــن الزلات وعلى أن الملائكة أجسام لطيفة نورانية تظهر في صــور مختلفة إلا أنها لا تظهر إلا في الصورة الحسنة وتقوى على أفعال شاقة كما كان جبريل عليه السلام يظهر في صورة أعرابي ، وكما كان يظهر في صورة : " دحية " وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمــرون ، كمــا أخــبر عن ذلك القرآن الكريم ، ولا يوصفون بالذكورة والأنوثــة ولكــن حصل الخلاف بين المسلمين في عصمتهم وفي تفضيلهم على الأنبياء .

يقــول صــاحب المقاصــد : واســتقر الخلاف بين المسلمين في عصــمتهم وفــي فضــلهم علــى الأنبياء ولا قاطع أحد الجانبين ، فلنذكر تمسكات الفريقين في المقامين :

المقــام الأول : أعني العصمة فتمسك المثبتون بمثل قوله تعالى : ﴿ **وقــالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهــم بأمره يعلمون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون** ﴾ [١] ، ويقول سبحانه ﴿ **ولــه من في الســموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ [٢] .

---

[١] سورة الأنبياء الآيات (٢٥ – ٢٨) .
[٢] سورة الأنبياء الآية (١٩ ، ٢٠) .

وبقولـــه تعالى ﴿ **ولله يسجد ما في السموات والأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ (١) .

فالقول الحق أنهم معصومون ويستحيل صدور الذنوب عنهم كبيرة كانت أو صغيرة . وهناك من يرى عدم عصمت هم استناداً إلى الشبه التالية :

الأول : عندما قال الله تعالى ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمـــدك ونقـــدس لـــك** ﴾ (٢) .. فقد توهم البعض أن هذا الكلام اغتياب للخليفة ، وفيه استبعاد لفعل الله تعالى بحيث يشبه صورة الإنكار بمعنى أنه لا ينبغـــي أن يكـــون واتـــباع للظن ورجم بالغيب فيما لا يليق ، وإعجاب بأنفسهم وتزكية لها وأمثال هذه الأشياء تخل بالعصمة .

الجـــواب : لقـــد أجاب القائلون بعصمتهم عن هذا بأن الاغتياب إنما يكون حيـــنما يكـــون غرض المغتاب إظهار منقصة الغير وهذا منتف من كلام الملائكـــة ، والتزكـــية إنما تكون حيث يكون العرض إظهار منقبة النفس ولا يتصـــور ذلـــك بالنسبة إلى علام الغيوب بل غرض الملائكة من هذا الكلام الاستفسار والتعجب عن حكمة استخلاف من يتصف بما لا يليق مع وجوده الأولى والأليق ، وإنما علموا بذلك بإعلام الله لهم بذلك أو مشاهدة مـــن اللـــوح المحفوظ أو مقايسة بين الجن والإنس بمشاركتهما في الشهوة والغضب المفضين إلى الفساد وسفك الدماء .

لا يقال قوله تعالى " أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين " أي في أني

---

(١) سورة النحل الآية (٤٩ ، ٥٠) .
(٢) سورة البقرة الآية (٣٠) .

أســتخلف من يتصف بما ذكرتم ينافي كون ذلك متحققاً معلوماً لهم بإعلام من الله تعالى أو إخبار أو بمشاهدة من اللوح .

أنـا نقول : إن المعنى إن كنتم صادقين في أني أستخلف من يتصف بذلك من غير حكم ومصالح وصفات تلائم الاستخلاف إذ التعجب إنما يكون عند ذلـك ، ولذا قال في الرد عليهم " إني أعلم ما لا تعلمون " إشارة إلى تلك الحكم والمصالح . وجاء في تفسير قوله تعالى " أتجعل فيها من يفسد فيها " إنما قالوا ذلك استكشافاً عما خفي عليهم من الحكمة التي غلبت تلك المفاسد وألفـتها وليس باعتراض على الله تعالى ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة ، فإنهم أعلى من أن يطعن بهم ذلك لقوله تعالى " بل عباد مكرمون " وإنمـا عـرفوا ذلك بإخبار من الله أو تلق من اللوح أو قياس لأحد الثقلين على الآخر .

الثانـي : قولـه تعالى ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ [١] .

فـتوهم هـؤلاء أن إبليس من الملائكة عصى أمر الله تعالى بعدم السـجود لآدم حيـن أمـره مع الملائكة بالسجود له وعلى هذا فلا يكون الملائكـة معصومين لأن أمر الملائكة بالسجود قد تناوله ، ولذا فقد عوقب بقولـه تعـالى " ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك " ودليل صحة الاستثناء من الملائكة في قوله تعالى " فسجدوا إلا إبليس " .

---

[١] سورة البقرة الآية (٣٤) .

الجـــواب : ورد عن هذا بالمنع ، فإبليس وإن وقع منه العصيان إلا أنه ليس ملكاً بل هو من الجن ، ففسق عن أمر ربه ، بدليل قوله تعالى ﴿ **مـن الجـن ففسق عن أمر ربه** ﴾ [١] ، وإنما أدرج في الملائكة على سبيل التغليب .

الثالـث : قصـة هاروت وماروت التي وردت في القرآن الكريم وهما ملكين ببابل يعذبان لارتكابهما السحر وهذا دليل عدم عصمة الملائكة **الجواب عن هذا** : فهذا كلام دسه الملحدون وليس له أصل بل طبيعة الملك تتـنافى مـع إتيان أي معصية ، فقد أنزل الله تعالى عليهما السحر ابتلاء للـناس وهمـا كانا يعظان الناس فيقولان لهم قبل التعليم إنما نحن فتنة فلا تكفروا أي لا تعتقدوا تأثيره ، ولا تعملوا به ، فإن ذلك كفر ، والعتاب إنما هـو علـى وجـه كما تعاتب الأنبياء على السهو والزلة من غير ارتكاب لكبيرة فضلاً عن كفر أو عمل بسحر ، واليهود هم الذين يدعون أن الواحد من الملك قد يرتكب الكبيرة فيعاقبه الله بالمسخ .

فـالله تعـالى أنـزل الملكين هاروت وماروت رحمة بعباده لأجل أن يعلموا الناس السحر حتى يستطيعوا التمييز بين السحر والمعجزة ، وما يعلمـان مـن أحـد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفروا ، والقرآن الكريم لا يعطي أكثر من ذلك فيجب الأخذ به وترك ما عداه .

---

[١] سورة الكهف الآية (٥٠) .

المقـــام الثاني

التفاضل بين الملائكة والأنبياء

أجمع المسلمون على أن سيدنا محمد ﷺ أفضل المخلوقات من ملك وإنـــس وجن في الدنيا والآخرة في سائر خصال الخير وأوصاف الكمال ، فقـــد قال عليه الصلاة والسلام : " أنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر " أي ولا فخر أعظم من ذلك أو ولا أقول ذلك فخراً بل تحدثاً بالنعمة وما ورد من النهي عن تفضيله على غيره من مثل قوله ﷺ " لا تفضلوني على الأنبياء "وقوله " لا تفضلوني على يونس بن متى" وقوله" لا تخيروني على موسى " محمول على أن المنهي عنه هو التفضيل المؤدي إلى تنقيض غيره أو انه قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل ، أو قال ذلك تأدباً وتواضعاً . فعـــدم التفضيل بهذا لا ينافي أنه ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق ، وصدق الرسول ﷺ حيث قال : " أنا أفضل الأولين والآخرين على الله ولا فخر " .

وهـــل أفضـــليته ﷺ لمزايا اختص بها أو بتفضيل من الله تعالى ، والتحقـــيق أنـــه بتفضيل من الله تعالى زيادة عما اختصه الله تعالى بمزايا لا توجـــد فـــي غيره ، قال تعالى ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** ﴾ [١] .

ثم اختلف العلماء في أيهما أفضل ، الملائكة أم الأنبياء ؟

يقـــول صـــاحب المقاصد : ذهب جمهور أصحابنا وهم الأشاعرة والشـــيعة إلـــى أن الأنبـــياء أفضل من الملائكة خلافاً للمعتزلة والقاضي الباقلاني وأبي عبد الله الحليمي من الأشاعرة إلى أن الملائكة أفضل مـــن

---

[١] سورة البقرة الآية (٢٥٣) .

الأنبـــياء . وذهب الأشاعرة أيضاً إلى أن عوام البشر من المؤمنين أفضل مـــن عـــوام الملائكة ، أما خواص الملائكة فهم أفضل من عوام البشر ، واحتجوا بأدلة عقلية مبنية على مقدمات نقلية :

الأول : أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، والحكيم لا يأمر بســـجود الأفضل للأدنى ، وإباء إبليس واستكباره ، والتعليل بأنه خير من آدم لكونه من نار وآدم من طين يدل على أن المأمور به كان سجود تكرمة وتعظـــيم ، لا ســـجود تحية وزيارة ، ولا سجود الأعلى للأدنى إعظاماً له ورفعاً لمنزله وهضماً لنفوس الساجدين .

الثانـــي : أن آدم أنـــبأهم بالأسماء ، وبما علم الله من الخصائص والمعلـــم أفضل من المتعلم ، وسياق الآية يدل على أن الغرض إظهار ما خفي عليهم من أفضلية آدم ودفع ما توهموا فيه من النقصان .

ولذا قال الله تعالى ﴿ **ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض** ﴾ .. وبهـــذا يندفع ما يقال أن لهم أيضاً علو ما جمة أضعاف العلم بالأسماء لما شـــاهدوا مـــن اللوخ ، وحصلوا في الأزمنة المتطاولة بالتجارب والأنظار المتوالية .

الثالث : قوله تعالى ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾ [١] ، فقد دل الإجماع على تخصيص آل إبراهيم وآل عمران بالأنبياء يعني يخرج من الاصطفاء على العالمين غير الأنبياء فيكون آدم ونوح وجميع الأنبياء مصطفين على العالمين ، ومنهم الملائكة

---

[١] سورة آل عمران الآية (٣٣) .

إذ لا مخصص للملائكة على العالمين .

الرابع : الغضب والشهوة وجميع الحاجات البدنية تشغل البشر عن الطاعات ، فالمواظبة على العبادات وتحصيل الكمالات بالقهر والغلبة على مـــا يضــــاد القوة العاقلة يكون أشق وأفضل وأبلغ في استحقاق الثواب ولا معنى للأفضلية سوى زيادة استحقاق الثواب والكرامة .

وهـــذا صــــحيح لأن للملائكة عقلاً بلا شهوة وللبهائم شهوة بلا عقل فمن غلبت شهوته على عقله يكون أحط من البهائم بقوله تعالى ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً** ﴾ ومن غلب عقله على شهوته يجب أن يكون أعلى من الملائكة [١] .

وأمـــا التمسك بقوله تعالى ﴿ **ولقـــد كرمنا بني آدم** ﴾ [٢] فالتكريم المطلـــق لأحـــد الأجـــناس يشعر بفضله على غيره فضعيف لأن التكريم المطلـــق لا يوجـــب التفضيل سيما مع قوله تعالى ﴿ **وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾ [٣] .

أمـــا الذين يقولون بتفضيل الملائكة على البشر جميعاً بما فيهم الأنبياء ، هؤلاء استدلوا أيضاً بأدلة نقلية وعقلية .

أمـــا الأدلة النقلية فمنها قوله تعالى ﴿ **ولله يسجد ما في السموات ومـــا في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ [٤] .

---

(١) انظر : النبوات والسمعيات للدكتور محي الدين الصافي (ص ٨٥) .
(٢) سورة الإسراء الآية (٧٠) .
(٣) سورة الإسراء الآية (٧٠) .
(٤) سورة النحل الآية (٤٩ ، ٥٠) .

فقد خصهم بالتواضع وترك الاستكبار في السجود وفيه إشارة إلى أن غيرهم ليس كذلك ، وأن أسباب التكبر والتعظم حاصلة لهم ، ووصفهم باستمرار الخوف وامتثال الأوامر ومن جملتها اجتناب المنهيات ، ومنها قوله تعالى ﴿ **ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ (١) ، فقد وصفهم بالقرب والشرف عنده وبالتواضع والمواظبة على الطاعة والتسبيح .

ومنها : قوله تعالى ﴿ **بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون** ﴾ (٢) ، وفيه إشارة إلى تخصيصهم بالكرامة المطلقة والخشية والامتثال ، وهذه الأمور أساس كافة الخيرات .

الجواب عن هذه الأدلة : هو أن جميع ذلك يدل على فضيلتهم لا أفضليتهم سيما على الأنبياء .

ومنها قوله تعالى ﴿ **قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك** ﴾ (٣) ، فإن مثل هذا الكلام إنما يحسن إذا كان الملك أفضل .

الجواب : هو لأنه إنما قال ذلك حين استعجله قريش العذاب الذي أوعدوا به بقوله تعالى ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأنبياء الآية (١٩ ، ٢٠) .
(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٧ ، ٢٨) .
(٣) سورة الأنعام الآية (٥٠) .
(٤) سورة الأنعام الآية (٤٩) .

فالمعـــنى أنـــي لست بملك حتى يكون لي القوة والقدرة على إنزال العذاب بـــإذن الله ، كما كان لجبرائيل عليه السلام أو يكون لي العلم بذلك بإخبار من الله بلا واسطة . ومنها قوله تعالى ﴿ **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونـــا ملكيـــن** ﴾ [١] ، والمعنى أن الملكية مرئية أعلى من البشرية وفي الأكل من الشجرة ارتقاء إليها .

والجـــواب : أن ذلـــك تمويه من الشيطان وتخييل ، فلو سلم فغايته التفضيل على آدم عليه السلام قبل النبوة .

وأما العقليات : فمنها : أن الملائكة روحانيات مجردة في ذواتها متعلقة بالهياكل العلويـــة مبرأة عن ظلمة المادة وعن الشهوة والغضب اللذين هما مبدأ الشرور والقـــبائح متصـــفة بالكمـــالات العلمية والعملية بالعقل من غير شوائب الجهل والنقص والخروج من القوة إلى الفعل على التدرج ، قوية على الأفعال العجيبة وإحداث السحب والزلازل مطلعة على أسرار الغيب سابقة إلى أنواع الخير ولا كذلك حال البشر .

الجـــواب : هـــو أن هـــذا الكلام مبني على قواعد الفلسفة لا على المتكلمين ، فالملائكة عند أهل السنة أجسام لطيفة نورانية لا يقدرون على شئ إلا بإقدار الله تعالى لهم ولا يعلمون شيئاً إلا بتعليم الله تعالى لهم ، فهم قادرون على التشكل والظهور بأشكال مختلفة حسنة شأنها الطاعة .

ونحن من جانبنا نرى أن الأسلم عدم الخوض في هذا التفصيل وترك الأمر لله عز وجل يحكم فيه بما يشاء حتى لا تزل بنا القدم وقد عليه ﷺ " لا تفضلوني علـــى يونس بن متى" تواضعاً منه ﷺ وتعليماً لنا حتى لا نخوض في هذا الباب .

---

[١] سورة الأعراف الآية (٢٠) .

بعض السمعيات

تمهيـــــد :

على رجال العلوم الإسلامية والكونية أن يعوا جيداً أن العلم الكامل هـو لله العلي القدير ، فهو وحده سبحانه وتعالى علام الغيوب ، الذي يعلم السـر وحـده ، وإذا كان الحق جل شأنه قد أذن لنا بالتعلم والتماس العلم والمعـرفة ، فهذا فضل كبير على عباده ، فقد قال جل شأنه ﴿ **وعلم آدم الأسـماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنـتم صـادقين . قـالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ (١) ،وقال ﷻ ﴿ **لا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء** ﴾ (٢)

وهذا رسول الإنسانية سيدنا محمد ﷺ يقول له ربه ﴿ **قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين** ﴾ (٣) .

لـذا فنحـن نهيب برجال العلوم الإسلامية وغيرهم أن لا يهجم أو يخلـط أمـور الغيب والمسائل الغيبية ، لأنه لا فكاك للإنسان من التسليم بصدقها ووقوعها لأن مصدرها الحق جل شأنه الذي أحاط بكل شئ علماً ، وطـريق ورودها موثق بالآمنين جبريل ، ومحمد عليهما الصلاة والسلام قـال تعـالى ﴿ **وعـنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والـبحر ومـا تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة البقرة الآية (٣١ ، ٣٢) .
(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .
(٣) سورة الملك الآية (٢٦) .
(٤) سورة الأنعام الآية (٥٩) .

إن الإيمـــان بالغيب ضرورة دينية ، إن الإيمان بالله تعالى وصفاته وأفعاله عن طريق الأدلة ، والإيمان ببعض مخلوقات الله تعالى ، كالملائكة والإيمـــان بالكتـــب عـــن طـــريق الرسالات السماوية ، والإيمان بالقيامة والآخرة ، والبعث والنشور ، والجزاء والعقاب ، والجنة ، والنار ، وغير ذلك من الأمور السمعية التي يجب التصديق بها لدى كل عقل راجح ونفس ســـوية ، فالإيمـــان بالســـمعيات أصل من أصول الدين ولا تؤخذ إلا من الســـمع الذي طريقه الوحي ، لذا فإنه في عصر التقدم العلمي ، وفي عالم المدنـــية المعاصرة ، أشد طلباً في حياة البشر وسلامة النفوس مما يعتريها في عالم اليوم .

ويجـــب أن يعلـــم رجـــال الكشوف العلمية وعلماء البحوث الذين يتمســـكون بالبحـــث فـــي الأمـــور المادية أن في العالم الغيبي أموراً لن يستطيعوا سبر أغوارها أو معرفة كنهها ، أما النتائج العلمية التي توصلوا إليها عن طريق اختباراتهم واستدلالاتهم ، فهي ضرب من الضروب التي أذن الله تعـــالى بانـــبلاجها على أيدي هؤلاء الباحثين ، ذلك أن حكمة الله تعـــالى تقتضي ذلك خدمة للبشر واستمراراً لصالح الإنسان ، فكل ما تأذن به القدرة الإلهية في كشفه إنما يعد من عالم الشهادة أثر ظهوره .

أمـــا عالم الغيب فهي أمور سيظل الواهمون يلهثون ورائها دونما طائل أو ثمرة إلا ضياع الأوقات والجهود والأعمار وستظل حقائق الأشياء الغيبية تتحدى العقول البشرية أبد الآبدين .

مـــن هـــنا كـــان وجوب الإيمان باليوم الآخر وما فيه ، من بعث وحساب وجنة ونار وثواب وعقاب وغير ذلك من مشاهد هذا اليوم .

وجوب الإيمان باليوم الآخر

إن من العقائد الإيمانية المقررة وجوب الإيمان باليوم الآخر ، وهو عبارة التصديق الجازم بوقوع اليوم الآخر .

فالإيمان باليوم الآخر من الأركان الأساسية التي تبنى عليها عقيدة المسلم ، فلا تتم عقيدته إلا به ، ولا تصح إلا عليه . لهذا فقد عنى القرآن الكـــريم بهذا المعتقد لأهميته في حياة المؤمن ولآثاره العظيمة في استقامة الفـــرد وصلاحه ، لهذا فقد تحدث القرآن الكريم عنه في كثير من السور ، بـــل وفي العديد من الآيات وذلك لأهميته في استقامة الإنسان على أوامر الديـــن ونواهيه في حياته ، قال تعالى ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾ [١] .

لهذا فإنا نشير في الصفحات التالية إلى بعض مسائل اليوم الآخر.

المقصود باليوم الآخـــر :

إن مـــن عناصر العقيدة الأساسية : الإيمان باليوم الآخر ، بل هو العنصـــر الهـــام الـــذي يلي الإيمان بالله مباشرة ، لأن الإيمان بالله يحقق المعـــرفة بالمصـــدر الأول الذي صدر عنه الكون ، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه هذا الوجود [٢] .

ولهـــذا فقـــد وضح القرآن الكريم هذه الحقيقة ، وأقام عليها الأدلة الساطعة ، واهتم القرآن الكريم بتقرير الإيمان بهذا اليوم حتى ربطـــــه

---

[١] سورة الأحزاب الآية (٢١) .

[٢] الشيخ السيد سابق : العقائد الإسلامية (ص ٢٥٩) دار الفكر بيروت لبنان الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

بالإيمـــان بـــالله تعـــالى ، قال تعالى ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ [١] .

هذا والمقصود باليوم الآخر : هو آخر يوم في هذه الدنيا فيموت كل مـــن فيها من الأحياء ، ثم ينشئ الله النشأة الآخرة فيبعث الله الناس جميعاً ويرد إليهم الحياة مرة أخرى .

جـــاء في لسان العرب مادة " آخر" في أسماء الله تعالى : الآخر ، والمؤخـــر ، فالآخـــر هـــو الباقـــي بعد فناء خلقه كله ، ناطقة وصامتة ، والمؤخر هو الذي يؤخر الأشياء فيضعها في مواضعها وهو ضد المتقدم ، والآخر بكسر الخاء هو الله ﷻ ، قال تعالى ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ [٢] .

ولقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : أنت الأول فليس قبلك شئ وأنت الآخر فليس بعدك شئ والآخرة دار البقاء " [٣] .

وقـــيل : أن المـــراد باليوم الآخر هو يوم القيامة ، وأوله من وقت الحشـــر إلـــى ما لا يتناهى على الصحيح ، وقيل إلى أن يدخل أهل الجنة الجـــنة ، وأهل النار النار ، وسمي باليوم الآخر لأنه آخر أيام هذه الدنيا ، بمعـــنى أنه متصل بآخر أيام الدنيا لأنه ليس منها حتى يكون آخرها [٤] ، قال تعالى ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ [٥] . أي بالبعث والقيامة ، والجنـــة

---

[١] سورة البقرة الآية (١٧٧) .
[٢] سورة الحديد الآية (٣) .
[٣] الإمام ابن منظور : لسان العرب المجلد الأول (ص ٣٨) .
[٤] الإمام إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري على الجوهرة (ص ٢١١) .
[٥] سورة البقرة الآية (٤) .

والنار ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، وغير ذلك .

هــذا ، وقــد تعــددت أسماء هذا اليوم لكثرة ما فيه من أحداث ، والقرآن الكريم أشار إلى أسماء هذا اليوم ، وما سوف يحدث فيه من أهوال ومن هذه الأسماء يوم الجمع والتغابن قال تعالى ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن** ﴾ [١] ،

يوم الفصل ، قال تعالى ﴿ **وما أدراك ما يوم الفصل** ﴾ [٢] .

يوم الدين ، لأنه يوم السؤال ، والحساب والجزاء ، قال تعالى ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ [٣] . يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ [٤] .

يوم الخلود ﴿ **ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود** ﴾ [٥] .

يــوم الخــروج ، قــال تعــالى ﴿ **يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج** ﴾ [٦] . يوم الحساب ، قال تعالى ﴿ **إني عذت بربي وربكم من كــل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ [٧] . يوم الآخرة ، قال تعالى ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى** ﴾ [٨] .

يوم الفتح ، قال تعالى ﴿ **قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون** ﴾ [٩] .

---

[١] سورة التغابن الآية (٩) .
[٢] سورة المرسلات الآية (١٤) .
[٣] سورة الفاتحة الآية (٣) .
[٤] سورة القيامة الآية (١) .
[٥] سورة ق الآية (٣٤) .
[٦] سورة ق الآية (٤٢) .
[٧] سورة غافر الآية (٢٧) .
[٨] سورة الأعلى الآية (١٦ ، ١٧) .
[٩] سورة السجدة الآية (٢٩) .

يوم التلاق ، قال تعالى ﴿ **رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق** ﴾ (١) .

يـوم الحسرة ، قال تعالى ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾ (٢) .

يوم التناد ، قال تعالى ﴿ **ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد** ﴾ (٣) .

كما سمي بالزلزلة ، قال تعالى ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ (٤) .

وبالقارعـة ، لأنهـا تقـرع القلوب بأهوالها ، قال تعالى ﴿ **والقارعة ما القارعة** ﴾ (٥) .

كما سمي هذا اليوم بالواقعة ، والطامة الكبرى والصاخة وغير ذلك من الأسماء التي تدل على شدائد هذا اليوم وأهواله .

وهكـذا كان اهتمام القرآن الكريم باليوم الآخر لأن المشركين من العـرب كـانوا يـنكرونه أشد إنكار وقالوا كما حكى القرآن الكريم عنهم ﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ (٦)

وكـان مـن اهتمام القرآن الكريم باليوم الآخر لأن الإيمان باليوم الآخـر يجعـل لحياتـنا غاية سامية ، وهدفاً أغلى ، وهذه الغاية هي فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، والتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائـل

---

(١) سورة غافر الآية (١٥) .
(٢) سورة مريم الآية (٣٩) .
(٣) سورة غافر الآية (٣٢) .
(٤) سورة الزلزلة الآية (١) .
(٥) سورة القارعة الآية (١) .
(٦) سورة الجاثية الآية (٢٤) .

الضارة بالأبدان والأديان والأعراض والعقول [١] .

كيف يبدأ يوم القيامـــة ؟

إن قيام الساعة من الأمور التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، قال تعالى ﴿ **إن الله عـــنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام** ﴾ [٢] ، فهـــو ممـــا اســـتأثر الله بعلمه ، قال تعالى ﴿ **يسألونك عن الساعة آيان مرســـاها ، قـــل إنمـــا علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في الســـموات والأرض لا تأتـــيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند** الله ﴾ [٣] .

وإذا كانـــت القـــيامة تـــبدأ بالنفخ في الصور كما سيأتي ، فإن هذا النفخ يحدث فجأة وسط تكذيب المنكرين لليوم الآخر ، وهم يلهون ويلعبون ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون** ﴾ [٤] .

يعني كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة ، أي اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعـــبوا فـــي دنـــياهم [٥] ، " حـــتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون " فهم استقصـــروا مـــدة لبثهم في هذه الحياة ، قال تعالى ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقســـم المجرمون ما لبثوا غير ساعة** ﴾ [٦] وقوله ﴿ **ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون** ﴾ [٧] .

---

[١] الشيخ سيد سابق : العقائد الإسلامية (ص ٢٦٥) .
[٢] سورة لقمان الآية (٣٤) .
[٣] سورة الأعراف الآية (١٨٧) .
[٤] سورة الزخرف الآية (٨٣) .
[٥] القرطبي (١٦ / ١٢١) .
[٦] سورة الروم الآية (٥٥) .
[٧] سورة يونس الآية (٤٥) .

وقال ﴿ **حتى تأتيهم الساعة بغتة** ﴾ [١] .

وقال ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾ [٢] والمراد : تقليل مدة الدنيا كما قال تعالى ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ﴾ .

وروى الضحاك عن ابن عباس : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا يوماً واحداً ، وقيل : " لم يلبثوا " في قبورهم إلا عشية أو ضحاها ، وذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم في القبور لما عاينوا من الهول [٣] .

يبدأ هذا اليوم أي يوم القيامة بالنفخ في الصور ، وهو عبارة عن قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بإذن الله تعالى معلناً نهاية الدنيا وبداية يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ **فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ [٤] .

يقول الإمام القرطبي : المراد بهذا النفخ النفخة الثانية ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ قال ابن عباس : لا يتفخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا ، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدنيا ، وعن ابن عباس أن ذلك في النفخة الأولى حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون [٥] .

---

[١] سورة الحج الآية (٥٥) .
[٢] سورة النازعات الآية (٤٦) .
[٣] القرطبي : التفسير (١٩ / ٢١٠) .
[٤] سورة المؤمنون الآية (١٠١) .
[٥] الإمام القرطبي (١٢ / ١٥١) .

وقال أيضاً : ﴿ **يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً** ﴾ [١] ، وقال ﴿ **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون** ﴾ [٢] . وقوله تعـالى ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ [٣] بين ما يكون بعد قبض الأرض وطي السماء وهو النفخ في الصور وإنما هما نفختان يموت الخلق في الأولى منهما ويحيون في الثانية وهذا هو البعث [٤] .

البعـث بعد المـوت :

لقد أوضح القرآن الكريم أدلة البعث بعد الموت ، بعد أن أشار إلى شبهات المنكرين للبعث ، وأنهم كانوا ينكرون البعث الجسماني ويستبعدون إحياء جسداً أصبح تراباً ويستغربون من إحياء عظام صارت نخرة بالية ، ولقـد رد علـيهم القرآن الكريم بآيات قد بددت شبهاتهم وردت كيدهم في نحورهم قائلاً ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ .

ونود أن نشير هنا إلى أن البعث الذي أمرنا المولى تعالى بالإيمان به ليس بعثاً روحياً فقط ، وإنما يبعث الإنسان ويحاسب ، ويعذب في النار أو يجـازى فـي الجنة روحاً وجسداً ، والقرآن الكريم زاخر بالأدلة على البعث وعلى وقوعه من ذلك قوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب مـن البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمـى**

---

[١] سورة النبأ الآية (١٨) .
[٢] سورة يس الآية (٥١) .
[٣] سورة الزمر الآية (٦٨) .
[٤] القرطبي : التفسير (١٥ / ٢٧٩) .

ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموته وأنه على كل شئ قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وإن الله يبعث من في القبور ﴾ (١) .

إن الذي يتأمل في هذه الآيات القرآنية وما فيها من دلالات واضحة على قدرة الله تعالى ، من إحياء الأرض حين ينزل عليها الماء ، وفي هذا دليل على البعث بعد الموت وأنه ممكن .

ولهـذا يلفت القرآن الكريم نظر الإنسان إلى حقائق تدل بالضرورة علـى إمكان البعث وتحقق وقوعه وترد على الذين أنكروا البعث من ذلك مـثلاً قوله تعالى ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم . قل يحييـها الـذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾** (٢) .

جـاء في تفسير الإمام القرطبي : قال ابن عباس ﷺ : الإنسان هو عـبد الله بـن أبي ، وقال سعيد بن جبير هو العاصي بن وائل السهمي ، وقـال الحسن : هو أبي بن خلف الجمحي ، وذلك أنه أتى النبي ﷺ بعظم حـائل فقال : يا محمد أترى أن الله يحيى هذا بعدما رم ؟ فقال النبي ﷺ : " نعم ويبعثك ويدخلك النار " (٣) .

---

(١) سورة الحج الآيات (٥ : ٧) .
(٢) سورة يس الآيات (٧٧ : ٨٠) .
(٣) الإمام القرطبي : التفسير (١٥ / ٥٨) .

فنزلت هذه الآية " وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ...... " .

فالقرآن الكريم يلفت نظر الإنسان إلى خلقه ، وقد خلقه ثم دلل على كمـــال قدرتـــه تعالى في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندي الرطب ، فهو القادر على إخراج الضد من الضد ، والله تعـــالى يخـــرج الشئ من نقيضه ، فيخرج من الشجر الأخضر الذي يقطـــر ماء ، ناراً توقد منه ، وهذا ما نراه بالحس والمشاهدة فيكون إنكار البعـــث مع ما نراه مكابرة أو عناد ضد الحقيقة والواقع ، قال تعالى ﴿ قل يحيـــيها الـــذي أنشـــأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشـــجر الأخضـــر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ فجعل النشأة الأولى دليل على الآخرة .

يقـــول صاحب المقاصد : " إن الحشر والإعادة أمر ممكن أخبر به الصـــادق فـــيكون واقعاً أما الإمكان ، فلأن الكلام فيما عدم بعد الوجود أو تفـــرق بعـــد الاجتماع أو مات بعد الحياة فيكون قابلاً لذلك ، والفاعل هو الله القادر على كل الممكنات العالم بجميع الكليات والجزئيات " [١] .

هـــذا وقـــد ساق القرآن الكريم الكثير من الأمثلة الحية للدلالة على البعث بعد الموت . من ذلك مثلاً ظاهرة إنبات الأرض ، فإنا نرى الأرض الميتة التي لا حياة فيها ، فإذا هي تنبت بالزرع والثمر ، قال تعالى ﴿ **والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور** ﴾ [٢] .

---

[١] الإمام سعد الدين التفتازاني : شرح المقاصد (٢ / ١٥٦) .
[٢] سورة فاطر الآية (٩) .

وقوله تعالى ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه إلى بلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾ [١] .

ومن الأمثلة المحسوسة على إثبات البعث يلفت القرآن الكريم نظر الإنسان إلى ظاهرة صحو الإنسان بعد منامه ، لأن النوم كالموت والاستيقاظ من النوم كالبعث من الموت ، قال تعالى ﴿ **والله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ [٢]

وبعد هذه الأمثلة الحية التي أرشدنا إليها القرآن الكريم ، ندرك أن الأدلة القرآنية من أقوى الأدلة التي تخاطب القلب والعقل كما أنها تلزم المعاند بالاعتراف بالحق والحقيقة ، لأن المنكر للبعث متناقض مع نفسه ، فعليه أن ينظر إلى نفسه في حالة صحوه بعد منامه لأن النوم كالموت والاستيقاظ من النوم كالبعث من الموت ، أو ينظر إلى ظاهرة إحياء الأرض بعد أن تكون ميتة ، وهي ظاهرة تتكرر أمامنا .

فلماذا نستبعد البعث الذي يتم بعد الموت أمام قدرة الله سبحانه وتعالى وإرادته التي تخرج الشئ من نقيضه ، وتضع القوانين الكونية [٣] وتخلق السموات والأرض وما بينها ، والله على كل شئ قدير .

---

[١] سورة الأعراف الآية (٥٧) .
[٢] سورة الزمر الآية (٤٢) .
[٣] الدكتور عبد الحليم حمدي : العقيدة الإسلامية (ص ٢٤٠) طبعة الكويت .

المعـــاد

إن حقــيقة العــود : توجه الشئ إلى ما كان عليه . والمراد هنا : الـــرجوع إلـــى الوجود بعد الفناء أو رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد الـــتفرق وإلـــى الحياة بعد الموت والأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة ، كما يراد به الإرسال والإحياء كما في قوله تعالى ﴿ **ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون** ﴾ (١) .

ولذلـــك نجد أن البعث : هو إحياء الله تعالى الموتى وإخراجهم من قـــبورهم بعد إعادة أجسامهم وإعادة الأرواح إلى هذه الأجسام وهو المشار إلـــيه في قولـــه تعالى ﴿ **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون** ﴾ (٢) .

يقـــول صـــاحب الجوهـــرة : والبعـــث عبارة عن " إحياء الموتى وإخـــراجهم من قبورهم بعد جمع الأجزاء الأصلية ، وهي التي من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره ولو قطعت قبل موته " (٣) .

كمـــا عـــرفه الإمـــام التفتازاني : بأن يبعث الله تعالى الموتى من قبورهم بأن يجمع أجزاءهم الأصلية ويعيد الأرواح إليها .

وقـــد اخـــتلف الـــناس في أمر البعث : فمن قائل به ومن قائل أنه روحاني ، ومن قائل أنه جسماني ، ومن قائل أنه بالروح والجسم معاً .

فمثلاً نجد القائلون بالمعاد الروحاني كما هو عند الفلاسفة ومعناه رجـــوع

---

(١) سورة البقرة الآية (٥٦) .
(٢) سورة يس الآية (٥١) .
(٣) شرح البيجوري على الجوهرة (ص ٢٠٢) طبعة ١٩٧٧م .

الأرواح إلـــى مـــا كانت عليه من التجرد عن علاقة البدن ، يقول صاحب المواقـــف : وقـــد عـــرفه الفلاسفة بأنه عبارة عن مفارقة النفس عن بدنها واتصالها بالعالم العقلي الذي هو عالم المجردات وسعادتها وشقاوتها هناك بفضائلها النفسانية ورذائلها (١) .

ولذلـــك نجد أن ابن سينا يصرح بهذا فيقول : " وإذا بطل أن يكون المعاد للبدن وحده وبطل أن يكون للبدن والنفس معاً وبطل أن يكون للنفس علـــى ســـبيل الناسخ ، فالمعاد إذاً للنفس وحدها على ما تقرر بعد أن كان المعاد موجوداً " (٢) .

كمـــا ذهب بعض المتكلمين إلى أنه جسماني فقط كما ذهب البعض الآخـــر إلى أنه جسماني وروحاني معاً .. يقول الإمام الغزالي : " اعلم أن الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين شرحوا الآخرة أتم شرح وبيان ، وإنما بعثوا لسوق الناس إليها ترغيباً وترهيباً وتشويقاً وتخويفاً مبشرين ومنذرين لـــئلا يكـــون للـــناس على الله حجة بعد الرسل ، لا سيما ما في الشريعة الأخيرة من تقرير أحوال المعاد الروحاني والجسماني " (٣) .

---

(١) شرح المواقف (٣ / ٢٢٨) .
(٢) ابن سينا : الأضحوكة في أمر المعاد (ص ١٢٦) تحقيق د / حسن عاصي . طبعة بيروت ١٩٨٤م .
(٣) الإمام الغزالي : معارج القدس (ص ١٦٦) .

كيفيـــة المعــــاد :

يقول صاحب المقاصد : اتفق المحققون من الفلاسفة والمليين على حقــيقة المعـــاد واختلفوا في كيفيته ، فذهب جمهور من المسلمين إلى أنه جســـماني فقــط ، لأن الروح عندهم جسم سار في البدن سريان النار في الفحــم والماء في الورد . وذهب الفلاسفة إلى أنه روحاني فقط لأن البدن ينعدم بصوره وأعراضه فلا يعاد . والنفس جوهر مجرد باق لا سبيل إليه للفــناء فيعود إلى عالم المجردات بقطع التعليقات . وذهب كثير من علماء الإســلام كالإمـــام الغزالي والكعبي والحليمي والراغب والقاضي أبي زيد الدبوســـي إلى أن القول بالمعاد الروحاني والجسماني جميعاً ذهاباً إلى أن النفس جوهر مجرد يعود إلى البدن (١) .

ويقول صاحب المواقف : المقصد الثاني في حشر الأجساد : أجمع أهــل الملــل عــن آخرهم على جوازه ووقوعه وأنكرهما الفلاسفة : أما الجــواز : فــلأن جمــع الأجــزاء علــى ما كانت عليه وإعادة التأليف المخصــوص فيها أمر ممكن كما مر ، والله عالم بتلك الأجزاء قادر على جمعهــا وتألــيفها لمــا بينا من عموم علمه وقدرته وصحة القبول والفعل توجب الصحة قطعاً .

وأمــا الوقــوع : فلأن الصادق أخبر عنه في مواضع لا تحصى بعبارات لا تقــبل الــتأويل حتى صار معلوماً بالضرورة كونه من الدين ، وكل ما أخبر به الصادق فهو حق (٢) .

---

(١) **الإمام التفتازاني : السمعيات من شرح المقاصد (ص ٨٨) تحقيق الدكتور سليمان خميس .**

(٢) **الإمام عضد الدين الإيجي : المواقف في علم الكلام (ص ٣٧٢) .**

ويقـــول العلامـــة نصير الدين الطوسي : قد أجمع المسلمون على المعـــاد البدني بعد اختلافهم في معنى المعاد ، فقال القائلون بإمكان إعادة المعدوم ، أن الله تعالى يعدم المكلفين ثم يعيدهم .

وقـــال القـــائلون بامتناعه : أن الله تعالى يفرق أجزاء أبدانهم الأصلية ثم يؤلف بينها ويخلق فيها الحياة .

وأما الأنبياء المتقدمون على محمد ﷺ ، فالظاهر من كلام أمتهم أن موسى عليه السلام لم يذكر المعاد البدني ، ولا نزل عليه في التوراة ، ولكن جاء ذلك في كتب الأنبياء الذين جاءوا بعده كحزقيل واشعيا عليهما السلام .

وأمـــا في الإنجيل : فقد ذكر أن الأخيار يكونون كالملائكة وتكون لهـــم الحـــياة الأبديـــة والسعادة العظيمة وإلا ظهر أن المذكور فيه المعاد الروحاني .

وأمـــا القرآن الكريم فقد جاء فيه كلاهما : أما الروحاني ففي مثل قولـــــه عز من قائل ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾ (١) وقولـــــه تعـــالى ﴿ **للذيـــن أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ (٢) وقوله سبحانه ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ (٣) .

وأما الجسماني : فقد جاء أكثر من أن يعدوا أكثره مما لا يقبل التأويل مثل قوله تعالى ﴿ **قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة السجدة الآية (١٧) .
(٢) سورة يونس الآية (٢٦) .
(٣) سورة التوبة الآية (٧٢) .
(٤) سورة يس الآية (٧٨) .

وقوله تعالى ﴿ **فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون** ﴾ [١] وقوله تعالى ﴿ **وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الذي أنطق كل شئ** ﴾[٢] وقوله ﴿ **يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير** ﴾ [٣] إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا [٤] .

ولهذا فقد أثبت العلماء المعاد الجسماني استناداً إلى الآيات القرآنية الكريمة الواردة في شأن البعث والتي ذكرنا بعضاً منها ، فقد أثبتت حشر الأجساد ولذل يقول صاحب المقاصد : المعتمد في إثبات حشر الأجساد دليل السمع والمفصح عنه غاية الإفصاح من الأديان " دين الإسلام " ومن الكتب القرآن الكريم ومن الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام .

فالأولى التمسك بدليل السمع وتقريره : أن الحشر والإعادة أمر ممكن أخبر به الصادق فيكون واقعاً ، أما الإمكان فلأن الكلام فيما عدم بعد الوجود أو تفرق بعد الاجتماع أو مات بعد الحياة ، فيكون قابلاً لذلك والفاعل هو الله القادر على كل الممكنات العالم بجميع الكليات والجزئيات ، فإثبات الحشر من ضروريات الدين وإنكاره كفر يقين [٥] .

ولهذا فقد تصدى علماء الأشاعرة للحجج التي تمسك بها المنكرين للحشر الجسماني وردوا عليها والتي من أهمها ما يلي :

إن المعاد الجسماني يتوقف على إعادة المعدوم ، وإعادة المعدوم

---

[١] سورة يس الآية (٥١) .
[٢] سورة فصلت الآية (٢١) .
[٣] سورة ق الآية (٤٤) .
[٤] العلامة نصير الدين الطوسي : تلخيص المحصل (ص ٢٣٣) نشر مكتبة الكليات الأزهرية .
[٥] الإمام التفتازاني : السمعيات من شرح المقاصد (ص ٩٢) .

لا يجوز ، لأن الإعادة بعد الفناء أو الجمع بعد التفرق يلزمه فناء كثير من الهيئات والأعراض .

كمـــا تمسك القائلون بالحجة التي تقول : أنه لو أكل إنسان إنساناً ، وصار غذاء له ، أي جزء من بدنه ، فالأجزاء المأكولة : إما أن تعاد في بـــدن الآكل أو في بدن المأكول ، وأياً ما كان لا يكون أحدهما بعينه معاداً بتمامه ، على أنه لا أولية لجعلها جزءاً من بدن أحدهما دون الآخر ، ولا ســـبيل لجعلهـــا جزءاً من كل منهما ، كما تمسك هؤلاء أيضاً بالحجة التي تقـــول إذا كـــان الآكـــل كافراً والمأكول مؤمناً ، يلزم عليه تنعيم الأجزاء العاصية أو تعذيب الأجزاء المطيعة .

لذا فقد تصدى علماء الأشاعرة للرد على هذه الشبهات وأمثالها .

فـــيقول صـــاحب المواقف للرد على الشبهة الأولى : أنه لا يمتنع وجـــوده الثانـــي لذاتـــه ولا للوازمـــه ، وإلا لم يوجد ابتداء ، لأن الإعادة أهـــون مـــن الابـــتداء وله المثل الأعلى ، لأنه استفاد بالوجود الأول ملكة الاتصاف بالوجود [١] .

هـــذا ويجاب عن الشبهة الثانية : بأنا نعني أن المعاد هو الأجزاء الأصلية وهي الباقية من أول العمر إلى آخره لا الحاصلة بالتغذية ، فالمعاد مـــن كل من الآكل والمأكول ، الأجزاء الحاصلة في أول الفطرة من غير لـــزوم فســـاد ، لأن الله سبحانه وتعالى قادر على تخليص أجزاء المأكول من الآكل بلا تداخل بين هذا وذاك ، وهو الذي يبعث كلاً منهم بعد موته ،

---

[١] المواقف (ص ٣٧١) .

وهـــو الذي يعلم كل جزئية من جزئيات كل إنسان ، يقول سبحانه وتعالى ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ (١) .

هـــذا ويجاب عن جميع الوجوه ك بأنا نعني بالإعادة أن يوجد ذلك الشئ الذي هو معاد بجميع أجزائه وعوارضه بحيث كل من يراه بأنه هو ذلـــك ، كمـــا يقال : أعد كلامك ، أي تلك الحروف بتأليفها وهيئاتها ، ولا يضر كون هذا معاداً في زمان آخر .

وعلى هذا فالمعاد حقيقة بالجسد والروح بدليل قوله تعالى ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾ (٢)وقوله تعالى ﴿ **ونادى أصـــحاب الأعـــراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم** ﴾ (٣) ولهذا فقد تضافرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة عن بعث الإنسان بجسده وروحه من ذلك قوله تعالى ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ (٤) وقوله تعالى ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ (٥)

كمـــا تضـــافرت الأحاديـــث النبوية الشريفة من ذلك ما رواه المغيرة بن الـــنعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قام فينا النبي ﷺ يخطب فقـــال : إنكم تحشرون حفاة عراة غرلاً ، كما بدأنا أول خلقه نعيده ، وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل عليه السلام .. " (٦) .

---

(١) سورة ق الآية (٤) .
(٢) سورة الرحمن الآية (٤١) .
(٣) سورة ق الآية (٤٨) .
(٤) سورة الزمر الآية (٦٨) .
(٥) سورة الأنبياء (١٠٤) .
(٦) الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني : فتح الباري (١١ / ٣٧٧) دار المعرفة بيروت لبنان

كما روى القاسم بن محمد بن أبي بكر : أن عائشة رضي الله عنها قالـــت : قـــال رســـول الله ﷺ : تحشرون خفاة عراة غرلاً ، قالت عائشة رضـــي الله عنها : فقلت يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشد من أن يهمهم ذاك " (١) .

---

(١) المصدر السابق (١١ / ٣٧٨) .

الشفاعــة

مــن الأمــور التي تتصل باليوم الآخر : الشفاعة ، وهي في اللغة مأخوذة من الشفع الذي هو ضد الوتر ، وفي الاصطلاح : مسألة الغير أن يشفع له إليه ، وتشفع إليه في فلان فشفعه فيه تشفيعاً (١) .

وقــد تحدث الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة عن الشفاعة يوم القيامة فقال تعالى ﴿ **ما من شفيع إلا من بعد إذنه** ﴾ (٢) .

وقــال تعالى ﴿ **يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً** ﴾ (٣) .

وقوله رسول الله ﷺ " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " (٤) .

والشفاعة أنواع وهي :

أولاً : الشفاعة العظمى ، وتكون يوم الهول الأكبر في الموقف قبل الحســاب ، وفيها يختص الحق جل شأنه حبيبه ومصطفاه سيدنا محمد ﷺ بالشفاعة .

ثانــياً : الشفاعة في إدخال فريق الجنة بغير حساب ، وهذه أيضاً للنبي ﷺ .

ثالــثاً : الشــفاعة فــي زيــادة الدرجات ويشارك فيها ﷺ الأنبياء والصالحون .

---

(١) **الإمام محمد بن عبد القادر الرازي : مختار الصحاح مادة شفع (ص ٢٩٤) .**

(٢) **سورة يونس الآية (٣) .**

(٣) **سورة طه الآية (١٠٩) .**

(٤) **الإمام الترمذي : السنن ، كتاب صفة القيامة باب ما جاء في الشفاعة (٤ / ٦٢٥) طبعة الحلبي .**

رابعـــاً : الشفاعة فيمن ارتكب المعصية من المؤمنين ، وخالف في هذا بعض الفرق إلا أن الحق والحقيقة هو حصول الشفاعة لأهل المعصية في حط السيئات إما في العرصات وإما بعد دخول النار ، وذلك لما اشتهر بـــل تواتر معنى ادخار الشفاعة لأهل الكبائر بقوله ﷺ " ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " (١) .

لذلـــك يقـــول صاحب المواقف : أجمع الأمة على أصل الشفاعة ، وهـــي عندنا لأهل الكبائر من الأمة لقوله عليه الصلاة والسلام : شفاعتي لأهـــل الكـــبائر مـــن أمتي ، ولقوله تعالى ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمـــنات** ﴾ (٢) ، أي ولذنـــب المؤمنين لدلالة القرينة وطلب المغفرة شفاعة (٣) .

ذلك أن ثبوت الشفاعة لمرتكب الكبيرة من أهل الإسلام ليس في أي تجـــزئة أو تشجيع على الاستمرار في الضلال والغي ، والشرع هو الذي يدفع عنه اليأس ويدخله في باب الرحمة الإلهية ، وربما أدى هذا إلى توبته وعودته إلى رياض الإيمان .

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ (٤) .

ولهـــذا يقـــول الإمـــام الجويني : وقد شهدت له شواهد من الكتاب والسنة ، لم نذكرها لشهرتها ، فيترتب على ذلك تشفيع الشفعاء ، وحـــط

---

(١) الإمام الترمذي : السنن . كتاب صفة القيامة باب الشفاعة (٤ / ٦٢٥) .
(٢) سورة محمد الآية (١٩) .
(٣) الإمام عضد الدين الإيجي : المواقف (ص ٣٨) .
(٤) سورة الزمر الآية (٥٣) .

أوزار المجرمين بشفاعتهم ، فمذهب أهل الحق أن الشفاعة حق [١] .

وإذا كـــان القـــرآن الكريم قد اشتمل على آيات في موضوع واحد بعضها ينفيه مثل قوله تعالى ﴿ **واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة** ﴾ [٢] ، وبعضها يثبته كقوله تعالى ﴿ **ما من شفيع إلا من بعد إذنه** ﴾ [٣] .

أجيـــب بأنه لا يمكن أن يكون محل النفي والإثبات واحد لئلا يلزم التـــناقض وهـــو محـــال ، فوجب أن تكون الشفاعة المنفية غير الشفاعة المثبـــتة ، فالشـــفاعة المنفـــية هي الشفاعة للكفار ، والشفاعة المثبتة هي الشفاعة لمذنبي هذه الأمة ، ولما كان صاحب الكبيرة مؤمن واستغفار النبي المـــأمور بـــه قـــبل التوبة يقبل كما جاء في قوله تعالى ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ ولقوله تعالى ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾.

يقول صاحب جوهرة التوحيد :

وواجب شفاعة المشفـــــع	محمـــــد مقدماً لا تمنـــع
وغيره من مرتضى الأخيار	يشفع كما جاء في الأخبار
إذ جائز غفران غير الكفـــر	فلا تكفر مؤمناً بالـــــوزر

---

[١] إمام الحرمين الجويني : الإرشاد (ص ٣٩٣) .

[٢] سورة البقرة الآية (١٢٣) .

[٣] سورة يونس الآية (٣) .

الحســـاب

إن مـــن صفات الكمال لله سبحانه وتعالى العدل ، والحكمة ، فهو جــل شـــأنه عدل لا يظلم أحداً من خلقه ، وحكيم لا يضع الشئ في غير موضـــعه . ومـــن عدلـــه وحكمته ألا يسوي بين البر والفاجر ، ولا بين المؤمن والكافر ولا بين المحسن والمسيئ .

ولهذا فقد بين القرآن الكريم عدالة الحساب يوم القيامة ، فلا تظلم فيه نفس شـــيئاً ، قال تعالى ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ (١) .

وهـــذا غاية العدل حيث توفى كل نفس ما كسبت ، قال تعالى ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محـــياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ (٢) .

كمـــا أنه سوف يقف كل إنسان على صحيفته ليعلم كل ما فيها من الأعمـــال قال تعالى ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾ (٣)

وهـــناك يجـــد كـــل إنســـان سجله الحقيقي الذي لا يغادر صغيرة ولا كبـــيرة إلا أحصـــاها كما جاء في قوله تعالى ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغـــادر**

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٤٧) .
(٢) سورة الجاثية الآية (٢١ ، ٢٢) .
(٣) سورة الإسراء الآية (١٣ ، ١٤) .

صـــغيرة ولا كبـــيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ [١] . وحينـــئذ تظهـــر علامـــة الحساب حين توزع الكتب على أصحابها ، فمن يأخذ كتابه بيمينه يكون ذلك بشرى من البشرات السارة ، ومـــن يـــأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره يكون ذلك علامة على سوء الحســـاب يقول تعالى ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يســـيراً ، وينقلـــب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً إنه كان في أهله مسروراً** ﴾ [٢] .

وعلى أساس هذا التسجيل الدقيق الصادق يقول الله تعالى على لسان من أوتي كتابه بيمينه ﴿ **هاؤم اقرءوا كتابية إني ظننت أني ملاق حسابية فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية** ﴾ [٣] .

وأما الذي أوتي كتابه بشماله فيقول ﴿ **يـــا ليتني لم أوت كتابية ولم أدر ما حسابية يا ليتها كانت القاضية** ﴾ [٤] .

وهذا من كمال العدل الإلهي والحكمة الإلهية أن يجمل الإنسان يرى سجل حـــياته فيـــتذكر ما قدمت يداه بعد أن نسيه ، قال تعالى ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شئ شهيد** ﴾[٥] والـــذي قـــام بهذا التسجيل الدقيق هما الملكان الموكلان بكتابة الحسنـــات والسيئات لكل إنسان ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ [٦] .

---

[١] سورة الكهف الآية (٤٩) .
[٢] سورة الانشقاق الآيات (٧ : ١٣) .
[٣] سورة الحاقة الآيات (١٩ : ٢٣) .
[٤] سورة الحاقة الآيات (٢٥ : ٢٧) .
[٥] سورة المجادلة الآية (٦) .
[٦] سورة الذاريات الآية (١٨) .

وبعد أن يطلع كل إنسان على سجل حسناته وسيئاته ، هنا يريد أن يعرف غلبة أحدهما على الآخر فيأتي دور وزن الأعمال وتقديرها لمعرفة الراجح والمـــرجوح ، فما هو الميزان . هو ما يقدر به أعمال العباد في الآخرة ، قال تعالى ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ (١) .

ذهـــب بعض المفسرين (٢) إلى أن للميزان كفتان وخيوط ولسان والشاهين ، فالجمع يرجع إليها ، وقيل أنه يدل بظاهره على أن لكل مكلف مـــيزاناً تـــوزن به أعماله فتوضع الحسنات في كفة ، والسيئات في كفة ، وقيل يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صـــنف مـــن أعماله ويمكن أن يكون ميزاناً واحداً عبر عنه بلفظ الجمع ، فالمـــيزان الكبـــير واحد إظهاراً لجلالة الأمر وعظمة المقام ، وعلى هذا فالمشـــهور أنـــه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال ، حيث توضع الأعمـــال فـــي الميزان الحسنات في كفة والسيئات في أخرى ، فإذا ثقلت الحســـنات دخل الجنة أما إذا ثقلت السيئات دخل النار دون أن يظلم مثقال ذرة قـــال تعالى ﴿ **فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية** ﴾ (٣)

وقولـــــه تعالى ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٤٧) .
(٢) الإمام القرطبي : التفسير (١١ / ٩٢) .
(٣) سورة القارعة الآيات (٦ : ١١) .
(٤) سورة الزلزلة الآية (٧ ، ٨) .

الصـــراط

بعد أن ينتهي الحساب ويتحدد مصير كل إنسان من الجنة أو النار يذهب البشر إلى الصراط ، وهو لغة : الطريق الواضح واصطلاحاً جسر ممـــدود على ظهر جهنم يرده الأولون والآخرون قال تعالى ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ [١] .

ويمـــر علـــى الصـــراط كـــل حسب عمله ، فمن الناس من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم كالرياح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشد الرجل يرمل رملاً ، فيمرون على قدر أعمالهم [٢] .

الحـــــوض :

أما الحوض فقد قال تعالى ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ [٣] .

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال : حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها فلا يظمأ أبداً .

وقـــال الصـــحابة له ﷺ : أيـــن نطلبك يوم الحشر ؟ فقال : على الصراط ، فإن لم تجدوا فعلى الميزان ، فإن لم تجدوا فعلى الحوض [٤] .

---

[١] سورة مريم الآية (٢٥) .
[٢] شرح الطحاوية (ص ٣٧١) .
[٣] سورة الكوثر الآية الأولى .
[٤] الإمام سعد الدين التفتازاني : السمعيات من شرح المقاصد (ص ١١٨) تحقيق الدكتور سليمان خميس .

الجنـــة والنـــار

أشرنا فيما سبق أن كل إنسان سوف يحاسب على ما قدمت يده من خير أو شر ، فالمحسن يلقى جزاء ما قدم في هذه الحياة من خير والمسئ يلقـــى حساب ما فرط في جنب الله ، والقرآن الكريم ينبه الأذهان إلى هذا فيقول ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ [١] .

ونحـــب أن نشـــير هنا إلى أـــن كل ما وصف الله سبحانه وتعالى الجنة والنار فهو حق ولا يجوز لمسلم أن يزعم أن الثواب والعقاب أمران معنويان لا حسيان بل يجب أن يعرف المسلم أن الثواب والعقاب للأجساد والأرواح ، وبـــناء عليه يكون النعيم مادي ومعنوي ، وكذلك العقاب يكون مـــادي ومعنوي ، فلقد صرح القرآن الكريم بأن الثواب والعقاب للأجساد والأرواح ، وعلى هذا تكون الجنة هي دار الثواب أعدها الله تعالى لعباده المؤمنيـــن الذين آمنوا به وبرسله وعملوا الصالحات ، وفارقوا الدنيا على الإيمان ، قال تعالى ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة الرزق قالوا هذا الذي رزقـــنا مـــن قـــبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ [٢] .

وإذا كـــان الله تعـــالى يكافئ المؤمنين بالنعيم ، فإنه يجازي الفجار بالنار عقاباً على ما اقترفوا من كبائر الإثم ولهذا فإن النار هي دار العقاب المعدة للعصاة الذين كفروا بالله ورسالاته وعصوا الله ورسوله وأطاعـــوا

---

[١] سورة المؤمنون الآية (١١٥) .
[٢] سورة البقرة الآية (٢٥) .

أهوائهـــم وشهواتهم قال تعالى ﴿ **وأعتدنا لهم عذاب السعير** ﴾ [١] ﴿ **كلا إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى** ﴾ [٢] .

وقد وصف القرآن الكريم النار – أعاذنا الله منها – بأن ﴿ **وقودها الـناس والحجـارة علـيها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلـون ما يؤمرون** ﴾ [٣] كما جاء في قوله تعالى ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ [٤] .

وأنها لا تشبع مما يلقى فيها ، بل تطلب المزيد ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ [٥] .

والاستفهام الذي في الآية على سبيل التصديق لخبره ، والتحقيق ، والتقريع لأعدائه والتنبيه لجميع عباده ، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الاســتزادة أي هــل من مزيد فازداد ، وإنما صلح هذا للوجهين ، لأن في الاســتفهام ضــرباً مــن الجحد ، وقيل ليس ثم قول وإنما هو على طريق المثل ، أي أنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك [٦] .

ومن أوصاف أهل النار أن طعامهم الزقوم ، وهي تسبرة من أخبث أنــواع الشــجر المر المنتن الرائحة ، ذلك **خير نزلاً أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم ، طلعها كأنــه**

---

[١] سورة الملك الآية (٥) .
[٢] سورة المعارج الآيات (١٥ – ١٨) .
[٣] سورة التحريم الآية (٦) .
[٤] سورة البقرة الآية (٢٤) .
[٥] سورة ق الآية (٣٠) .
[٦] الإمام القرطبي : التفسير (١٧ / ١٨) .

رءوس الشــياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴾ [١] .

ومن أوصافهم أيضاً أن ثيابهم من النار بحيث تصبح تلك الثياب ، أداة مــن أدوات العذاب ، قال تعالى ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذيــن كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصــهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾** [٢] .

وهكــذا يحكي القرآن الكريم أوصاف النار وأهلها وما يلاقون فيها ﴿ **أولــئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾** [٣] .

إلى غير ذلك من الأوصاف التي يلقاها هؤلاء الذين كفروا بآيات الله ، قال تعــالى ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾** [٤] .

وهكــذا من شدة الهول ، وقسوة العذاب يود المجرد أن يفدي نفسه بكــل حبيــب لديــه وعزيز عليه ، ولكن لا ينفع فداء ولا يقبل رجاء يود المجرم لو يفتدي من عذاب ﴿ **يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه كلا إنها لظى ... ﴾** [٥] .

---

[١] سورة الصافات الآيات (٦٠ : ٦٧) .
[٢] سورة الحج الآيات (١٩ : ٢٢) .
[٣] سورة الرعد الآية (٥) .
[٤] سورة النساء الآية (٥٦) .
[٥] سورة المعارج الآيات (١١ : ١٥) .

وإذا كان ما أشرنا إليه بعض ما جاء في القرآن الكريم من وصف لأهل النار الذين عملوا السيئات وعصوا الرسل وكفروا بآيات الله واختاروا طريق الأهواء والشهوات .

أمـــا الذيـــن اتبعوا الرسل وعملوا الصالحات ، وآمنوا بالله ورسله والـــيوم الآخر لهم جنات تجري من تحتها الأنها ، قال تعالى ﴿ **إن الذين آمـــنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ، أولئك لهم جـــنات عـــدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً** ﴾ [١] .

والـــذي يقـــرأ تدبير القرآن في وصف الجنة وما فيها من علامات دالـــة علـــى الـــبهاء والنضرة والجمال والنعيم لتكون جزاء أهل التوحيد والتقوى وبهذا وصف الله الجنة بأن نعيمها دائم ، وسرورها لا ينفذ ، وكل مـــا فـــيها بغير حساب ، فأنهارها كثيرة ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهـــار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وهذه الأنهار تجري من تحت القصور ، وفيها الفواكه ولحـــوم الطـــير ، قـــال تعـــالى في وصف الجنة ﴿ **مثل الجنة التي وعد المـــتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهـــار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ...** ﴾ [٢] .

---

[١] سورة الكهف الآية (٣٠ ، ٣١) .
[٢] سورة محمد الآية (١٥) .

ويقــول تعالى ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون** ﴾ (١) .

وفي سورة الرحمن وغيرها من سور القرآن الكريم يتحدث القرآن الكــريم عــن النعيم الذي أعده الله تعالى لأهل الجنة وأن أعلى النعيم هو رؤية الله ﷻ ومناجاته والفوز برضاه ، قال تعالى ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ (٢) .

وقــال تعــالى ﴿ **إن أصــحاب الجــنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم** ﴾ (٣) .

وغــير ذلك من النعيم الذي أعده الله تعالى لعباده الصالحين ، فقد روى الــبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : يقول الله ســبحانه : أعــددت لعبادي الصالحين ما لا عين ولا أذن سمعت ولا خطــر على قلب بشر ، اقرأوا إن شئتم ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الزخرف الآيات (٧١ : ٧٣) .
(٢) سورة القيامة الآية (٢٢ ، ٢٣) .
(٣) سورة يس الآية (٥٧ ، ٥٨) .
(٤) سورة السجدة الآية (١٧) .

أبدية الجنة والنار

إن الجـــنة والنار موجودتان الآن وفيما مضى وفي المستقبل لأنهما دار خلود ، فالجنة خالدة لا تفنى وكذلك النار ، وأهل كل منهما مخلدون ، ونصوص القرآن الكريم صريحة في هذا ، فنجد في كثير من الآيات التي تبين الخلود ليدل على استمرار البقاء ، قال تعالى ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً** ﴾ [١] .

ويقـــول فـــي الكافرين ﴿ **إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً ، خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً** ﴾ [٢] .

ونود أن ننبه إلى أن المؤمن لا يخلد في النار ، وأما الذي يخلد في النار فهو الكافر ، فالمؤمنون هم السعداء المخلدون في الجنة ، والكفار هم الأشقياء المخلدون في النار ، قال تعالى ﴿ **فأما الذين شقوا ففي النار لهم فـــيها زفـــير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربـــك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾ [٣] .

فأصحاب النار خالدون في عذاب الله وسخطه ، وقد أكد هذا الخلود القـــرآن الكـــريم في عدة مواضع منها قوله تعالى في الكفار ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها** ﴾ [٤] .

---

[١] سورة النساء الآية (١٢٢) .
[٢] سورة الأحزاب الآية (٦٤ ، ٦٥) .
[٣] سورة هود (١٠٦ : ١٠٨) .
[٤] سورة البينة الآية (٦) .

وقولـــــه تعالى ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾ [١] ، وقولـــه تعالى ﴿ **ومن يعصي الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً** ﴾ [٢] .

أما في حق أهل الجنة فقد قال تعالى ﴿ **وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ [٣] .

وقولــه تعالى ﴿ **وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ [٤] .

وقوله تعالى ﴿ **لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ [٥] .

وبعد ، فهذه بعض السمعيات التي قد سمعنا عنها من كتابنا الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأخبرنا بها الأمين على وحـــي الله تعالى سيدنا محمد ﷺ ، فوجب علينا الإيمان بوجودها بموجب سماعنا عنها من القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة والله الموفق وهو الهـــادي إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

---

[١] سورة النحل الآية (٢٩) .
[٢] سورة الجن الآية (٢٣) .
[٣] سورة إبراهيم الآية (٢٣) .
[٤] سورة التوبة الآية (١٠٠) .
[٥] سورة المائدة الآية (١١٩) .

التمهيد في معنى الإمامة وأهميتها

إن من أهم القضايا في الفكر الإسلامي قضية الإمامة لأن الإمام هو من يراعي أوامر الدين يقوم على شئون الجماعة منظماً لكل حياتهم مقيماً لحدودهم وتجهيز جيوشهم وسد ثغورهم وقطع مادة الشرور عليهم .

يقول الإمام الغزالي : إن الدنيا والأمن على النفس والأموال لا ينتظم إلا بسلطان مطاع فتشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السلاطين والأئمة وأن ذلك لو دام ولم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع دام الهرج ، وعم السيف وشمل القحط وهلكت المواشي وبطلت الصناعات " [١] .

ولهذا فإن الإمامة أمر مهم يجعل صاحبها محلاً لقيادة المسلمين .
يقول إمام الحرمين الجويني في كتابه " غياث الأمم " :

" الإمامة رياسة تامة وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا لتضمنها حفظ الحوزة ورعاية الرعية وإقامة الدعوة بالحجة والسيف وكف الجنف والحيف والانتصاف للمظلومين من الظالمين واستيفاء الحقوق من الممتنعين وإيقاؤها للمستحقين " .

ولهذا يقول الغزالي : الدين والسلطان توأمان ، ولهذا قبل الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهدوم وما لا حارس له فضائع " [٢] .

ولهذا يقول صاحب المواقف في تعريفه الإمامة : هي خلافة الرسول ﷺ في إقامة الدين بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة .
ويقول : قال قوم : الإمامة رياسة عامة في أمور الدين والدنيا [٣]

---

[١] الإمام الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد (ص ١١٩) .
[٢] السابق نفس المكان .
[٣] الإمام عضد الدين الإيجي : المواقف (ص ٣٩٥) .

ذلـــك أن أمـــر الدين لا ينتظم إلا بانتظام أمور الدنيا وانتظام أمور الدنيا لا تتيســـر إلا بإمام مطاع يأخذ للضعيف من القوي وينصر المظلوم على الظـــالم ويـــرد عدوان بعض الناس على بعض ويحافظ على النخوم ويرد سطو الأعداء [١] .

مدى حاجة الأمة إلى نصب الإمام وحكم الإمامة :

لقد أمر الشارع الحكيم بإقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش للجهاد وحفظ النظام وحماية الإسلام ، وهذا وغيره لا يتم إلا بإمام وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب لهذا فنصب الإمام واجب لأنه يجلب المنافع ويدفع المضار عن الأمة وهذا من الضروريات .

ذلك أن أمر الجماعة لا ينتظم إلا بإمام يمتثل الناس لأمره ونهيه ، لأن المشـــاهد أن الاجـــتماع لا يـــتم بـــدون سلطان يحفظ المصالح ويدرأ المفاســـد ، لهـــذا كانـــت الحاجة ماسة إلى رئاسة الأمة لأمر الدين والدنيا ذلـــك لأن الغـــرض من نصب الإمام هو قيادة الدولة في الداخل والخارج بحيـــث لا تقـــع فريسة للمغرضين من داخلها أو خارجها ولابد للقيام بهذا العـــب ء الثقيل من إمام عادل له من المهابة والسلطان ما يردع كل متطلع إلى الفوضى محب للتفرقة .

وربمـــا تطالعنا التجربة التي نعيشها في دنيا الناس ، أنه مع وجود الإمـــام فيهم ربما يتهافتون على المظالم فكيف يكون حال الأمة حين يغيب عنها السلطان العادل الذي يرد به النفوس الجامحة والميول الشاردة ، فلابد

---

[١] الكمال ابن الهمام : المسايرة في علم الكلام (ص ١٥٦) .

مـــن إمـــام يقيم السنة ويستوفي الحقوق ، فالإمامة ضرورة ملحة للناس ، فالحاجـــة إليها ماسة والاعتراف بها واجب لأنها من أتم مصالح المسلمين وأعظم مقاصد الدين ، ففي نصب الإمام رفع للضرر عن المسلمين ورفع الضرر واجب شرعاً لأن مقصود الشارع من تشريع الأحكام فيها المصالح التـــي تعود على المسلمين في المعاش والمعاد والناس مع اختلاف أهوائهم وتبايـــن نزعاتهم لا ينقاد بعضهم لبعض فتحدث بينهم الشحناء ، ولهذا ففي تولية الإمام من أهم مصالح المسلمين .

لذا يقول ابن خلدون : " إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجمـــاع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم ، وكذا في كل عصر مـــن بعـــد ذلك ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار ، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام " [١] .

كمـــا يقـــول الإمام ابن حزم : اتفق أهل السنة والمرجئة والمعتزلة والشـــيعة والخـــوارج علـــى وجـــوب الإمامـــة وأن الأمـــة واجب عليها الانقـــياد لإمـــام عادل يقيم فيهم حكم الله ويسوسهم بالشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ " [٢] .

ولذلـــك يذهب القاضي عبد الجبار من المعتزلة إلى القول بوجوب تنصيب الإمام فيقول : " ثبت من إجماع الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ

---

[١] ابن خلدون : المقدمة (ص ١٧١) طبعة دار الشعب .

[٢] الإمام ابن حزم : الفصل (٤ / ١٤٩ – ١٥٠) تحقيق د / محمد إبراهيم . الطبعة الأولى ١٩٨٢م .

أنهم فزعوا لإقامة إمام على وجه يقتضي أن لابد منه عند العقد لأبي بكر يوم السقيفة " [١] .

لهذا كان وجه حاجة الأمة قائم في كل زمان ومكان إلى إمام ينظم العمل من أجل إصلاح حال المسلمين في دينهم ودنياهم .

يقول ابن خلدون : " وإذا تقرر أن هذا المنصب واجب بإجماع فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل العقد والحل فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعاً طاعته " [٢] .

لهذا يجب على الأمة طاعته والانقياد لأوامره ، يقول تعالى في كتابه الكريم ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ [٣] .

ويقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة : " من أطاعني فقد أطاع الله ومن يعصني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعصي الأمير فقد عصاني " [٤] .

من هذه الأدلة وغيرها فضلاً عما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من إقامة هذا الفرض الضروري إصلاح حال الرعية من المسلمين يقول ابن حزم : " وقد علمنا بضرورة العقل وبديهته أن قيام الناس بما أوجبه الله تعالى من الأحكام عليهم لا تصح إقامته إلا بالاستناد إلى واحد فاضل حسن السياسة " [٥] .

---

[١] القاضي عبد الجبار : المغني (٢٠ / ٤٧) .
[٢] ابن خلدون : المقدمة (ص ١٧٢) .
[٣] سورة النساء الآية (٥٩) .
[٤] الإمام النووي : صحيح مسلم (١٢ / ٢٢٣) .
[٥] ابن حزم : الفصل (٤ / ١٥٠) .

آراء المتكلمين في الإمامة

إن من أهم الموضوعات التي تعلق بها الفكر البشري موضوع الإمامة بل وما زال هذا محل أخذ ورد حتى كانت مسألة الإمامة من جملة الأسباب التي أدت إلى نشأة علم الكلام في الإسلام ، وقد اختلف علماء الكلام حول قضية الإمامة وما تشتمل عليه من حيث وجوبها شرعاً وعقلاً أو عقلاً فقط أو نفي وجوبها أو وجوبها في أي حال من الأحوال .

يقول الإمام عضد الدين الإيجي : " إن نصب الإمام عندنا واجب علينا سمعاً وقالت المعتزلة والزيدية بل عقلاً وقال الجاحظ بل عقلاً وسمعاً وقالت الإمامية والإسماعيلية بل على الله ، إلا أن الإمامية أوجبوه لحفظ قوانين الشرع والإسماعيلية ليكون معرفاً لله وقالت الخوارج لا يجب أصلاً ومنهم من فصل ، فقال بعضهم يجب عند الأمن دون الفتنة بالعكس" [١]

والقارئ لهذا النص يدرك أن العلماء متفقون على أمر وجوب الإمامة وإن اختلفوا في كيفيتها من حيث كونها عقلاً أو شرعاً أو هما معاً ولهذا يقول صاحب الجوهرة : " ومن الوجوه الدالة على وجوبه بالشرع أن الشارع أمر بإقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش وذلك لا يتم إلا بإمام يرجعون إليه في أمورهم " [٢] .

ويقول الإمام أبو المعالي الجويني : " إن الذب عن الحوزة والنضال دون حفظ البيعة محتوم شرعاً ولو ترك الناس فوضى لا يجمعهم

---

[١] الإمام عضد الدين الإيجي : المواقف (ص ٢٩٥) .
[٢] الإمام إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري (ص ٢٤٤) .

علـــى الحـــق جـــامع ولا يوزعهـــم وازع ولا يردعهم عن اتباع خطوات الشـــيطان رادع مـــع تفنن الآراء وتفرق الأهواء لتبتر النظام وهلك الآثام وتوثـــب الطغـــاة والعـــوام وتحربت الآراء المتناقضة وتفرقت الإرادات المتعارضـــة وملـــك الأرذلون سراة الناس وفضت المجامع واتسع الخرق علـــى الراقع ونشبت الخصومات واستحوذ على أهل الدين ذووا العرامات وتبددت الجماعات ولا حاجة إلى الإطناب بعد حصول البيان " .

مـــن هـــنا نجد أن علماء الكلام يذهبون إلى القول بوجوب الإمامة معلليـــن حاجة الشارع إليها بل وحاجة الأمة إلى من يسوس أمته ، ولذلك يقول صاحب المقاصد : إن الشارع أمر بإقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجـــيوش للجهـــاد وكثـــير من الأمور المتعلقة بحفظ النظام وحماية بيضة الإسلام ، مما لا يتم إلا بإمام وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

كمـــا أن فـــي نصب الإمام استجلاب منافع لا تحصى واستدفاع مضار لا تخفى ، وكل ما هو كذلك فهو واجب .

أمـــا الصـــغرى ، فتكاد تلحق بالضروريات ، بل بالمشاهدات ، وذلك لأن الاجتماع المؤدي إلى صلاح المعاش والمعاد لا يتم بدون سلطان قاهر يدرأ المفاســـد ويحفـــظ المصـــالح ويمنع ما يتسارع إليه الطباع ويتنازع عليه الأطماع وكفاك شاهداً ما يشاهد من استيلاء الفتن والابتلاء بالمحن لمجرد هـــلاك من يقوم بحماية الحوزة ورعاية البيضة وإن لم يكن على ما ينبغي مـــن الصلاح والسداد ولم يخل من شائبة شر وفساد ، ولهذا لا ينتظم أمر أدنى اجتماع كرفقة طريق بدون رئيس يصدرون عن رأيه ومقتضى أمره ونهيه بل ربما يجري مثل هذا فيما بين الحيوانات العجم كالنحل لها عظيم

يقــوم مقام الرئيس ينتظم أمرها به مادام فيها ، وإذا هلك انتشرت الأفراد انتشـــار الجـــراد وشاع فيما بينها الهلاك والفساد ، لا يقال فغاية الأمر أنه لابـــد في كل اجتماع من رئيس مطاع منوط به النظام والانتظام ، لكن من أين يلزم عموم رياسته جميع الناس وشمولها أمر الدين على ما هو المعتبر فـــي الإمـــام ، لأنـــا نقول : انتظام أمر عموم الناس على وجه يؤدي إلى صلاح الدين والدنيا ، يفتقر إلى رياسة عامة فيها ، إذ لو تعدد الرؤساء في الأصـــقاع والـــبقاع لأدى إلى منازعات ومخاصمات موجبة لاختلال أمر الـــنظام لو اقتصرت رياسته على أمر الدنيا ولفات انتظام أمر الدين الذين هـــو المقصـــود والأهـــم والعمدة العظمى ، وأما الكبرى فبالإجماع عندنا وبالضرورة عند القائلين بالوجوب العقلي [١] .

ولعل ما ذهب إليه علماء الكلام في هذا الموضوع ظاهر وجلي لأن الغرض من نصب الإمام عندهم هو قيادة الدولة وحسن رعايتها في الداخل والخارج بحيث لا تكون عرضة للمغرضين في الداخل أو الخارج ، ولابد مـــن القـــيام بهـــذا العبء الثقيل من إمام قدوة لجميع الناس له من المهابة والقدرة ما يردع كل متطلع للفرقة نزاع إلى الفوضى والأنانية .

شروط الإمـــام :

إن منصـــب الإمامة له مكانة كبيرة ومهابة عظيمة ، ولهذا اشترط العلماء شروطاً أوجبوا توفرها فيمن يكون إماماً لأن هذه الشروط تمكنه من السيطرة على أرجاء الدولة الإسلامية ، كما أنها تجعله ذات قوة ومنعة

---

(١) الإمام سعد الدين التفتازاني : شرح المقاصد (٥ / ٢٣٧ – ٢٣٨) .

وسط هذه الأمواج المتلاطمة والآراء المتباينة والعقول المتفاوتة ، ومن أهم هذه الشروط التي ذكرها العلماء أن يكون مكلفاً حراً ذكراً عاقلاً ، لأن غير العـاقل مـن الصـبي والمعتوه قاصر عن القيام بالأمور على ما ينبغي ، والعـبد مشـغول بخدمة السيد ، وأن يكون مجتهداً شجاعاً ذا رأى وكفاية سميعاً ناطقاً ، كما اشترطوا أن يكون ورعاً شديداً يوثق بقوله ويؤمن منه ويعتمد عليه وأن يكون ذا بأس وشدة وقوة قلب وثبات في الأمور [١] .

كمـا اشـترط العلماء في الإمام أن يكون فاضلاً ، عالماً ، حسن السياسة قوي على الإنقاذ [٢] .

هـذا فضلاً عما ذكره ابن خلدون وفصله في شروط الإمامة فنجده يقـول : وأمـا شـروط هذا المنصب فهي أربعة : العلم والعدالة والكفاية وسـلامة الحواس والأعضاء ، مما يؤثر في الرأي والعمل ، واختلف في شرط خامس هو النسب القرشي [٣] .

وواضح من اشتراط العلم في الإمام من أنه لابد للإمام من المعرفة المتعلقة بالحلال والحرام ، والإمام ليس كغيره هنا في درجة المعرفة وإنما يفـوق غيره بالقدر الذي يتفق وتصدره لقيادة المسلمين بحيث يبلغ في هذا الـنوع من أنواع المعارف درجة الاجتهاد ، وهو شئ طبيعي يتناسب لما هو خاص به من كونه صاحب الكلمة التي لابد وأن تكون مطابقة لما جاء به الدين لكون صاحبها إماماً لدولة الإسلام .

---

[١] القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة (ص ٧٥٢) .
[٢] ابن حزم : الفصل (٤ / ١٥٠) .
[٣] ابن خلدون : المقدمة (ص ١٧٢) .

واشــترط ابن خلدون في الإمام الكفاية لكي يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها كفيلاً بحمل الناس عليها ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وتدبير المصالح [١] .

هــذا بالإضــافة إلى الاهتداء إلى وجوه السياسة وحسن التدبير حتى يصل الإمــام بالعــالم الإســلامي إلــى بر النجاة محققاً للأمة مصالحها الدينية والدنــيوية .. يقول ابن خلدون : " ثم إن الوجود شاهد بذلك فإنه لا يقوم بأمــر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم وقلّ أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي " [٢] .

الطريقة التي تنعقد بها الإمامة :

يرى جمهور العلماء أن الطريقة التي ينبغي على المسلمين اتباعها فــي عقد الإمامة لواحد من الناس هي الاختيار من الأمة باجتهاد من أهل العلــم والرؤساء ووجوه الناس وأهل الحل الذين يتيسر حضورهم باختيار من يصلح للإمامة .

بيد أن أغلب الظن من وراء ما ذهب إليه العلماء في تفويض الأمة فــي الاختيار هو أن النبي ﷺ لم يترك للمسلين نصاً صريحاً يلتزمونه في اختيار من يتولى أمر المسلمين بعد وفاته ﷺ .

يقــول الــبغدادي في ثبوت الإمامة : " إن طريق ثبوتها الاختيار من الأمة بالاجتهاد منهم واختيارهم من يصلح لها ، وكان جائزاً ثبوتهــا

---

[١] ابن خلدون : المقدمة (ص ١٧٣) .
[٢] المصدر السابق (ص ١٧٥) .

بالـــنص غـــير أن النص لم يرد فيها على واحد بعينه فصارت الأمة إلى الاختيار " (١) .

مـــن هـــذا النص يتبين لنا أن ثبوت الإمامة لواحد من الناس ربما يكـــون جائـــزاً إذ لا استحالة في وروده إلا أنه لم يرد على واحد بعينه ، فصـــارت الأمة في هذا الاختيار نظراً لعدم وجود نص يتعين بمقتضاه أن تكون الإمامة لواحد دون غيره ، وهذا هو المناسب ، ذلك أن أنظمة الحكم تســـتمد من البيئة التي تعيش فيها الجماعة ، والبيئة تتأثر بالزمن وتختلف باختلاف المؤثرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وبالتالي يتأثر اختيار الحاكم ونوع الحكومة بالزمن وبالبيئة التي يكون فيها الاختيار .

لهـــذا يـــرى جمهـــور العلماء من السنة والمعتزلة وكذا الخوارج وغـــيرهم يجمعـــون على أن الإمامة ثابتة بالاختيار لا بالنص كما يدعي الشيعة ..

لـــذا يقـــول أبو الحسين البصري : " إن إجماع أهل كل عصر من الأمة صواب وحجة وأن الأمة إذا اجتمعت على حكم الإمارة لم يقطع على تعلـــق الحكـــم بها ، ويدل على جواز وقوع الإجماع عن اجتهاد ، إجماع الصحابة على إمامة أبي بكر " (٢) .

هـــذا ويوضـــح الإمـــام عضـــد الدين الإيجي مدى إمكانية أهل الحل والعقد من العلماء وغيرهم فيقول : وإذا ثبت حصول الإمامـــة

---

(١) الإمام عبد القادر بن طاهر البغدادي : أصول الدين (ص ٢٨٩) دار الكتب العلمية ، طبعة ١٩٨١م .

(٢) أبو الحسين الطيب : المعتمد في أصول الفقه (٢ / ٥٢٠) نقلاً عن د / أحمد عبد الوهاب دراسات في علم الكلام (ص ٨٧) .

بالاختـــيار والبيعة فاعلم أن ذلك لا يفتقر إلى الإجماع إذ لم يقم عليه دليل مـــن العقـــل أو السمع بل الواحد والاثنان من أهل الحل والعقد كاف لعلمنا أن الصـــحابة مـــع صـــلابتهم في الدين اكتفوا بذلك كعقد عمر لأبي بكر وعقـــد عبد الرحمن بن عوف لعثمان ولم يشترطوا إجماع من في المدينة فضـــلاً عـــن إجماع الأمة ، ولم ينكر عليه أحد ، وعليه انطوت الأعصار إلى وقتنا هذا .

وقـــال بعـــض الأصحاب : يجب كون ذلك بمشهد بينة عادلة كفاً للخصـــام في ادعاء من يزعم عقد الإمامة له سراً قبل من عقد له جهراً ، وهـــذا مـــن المســـائل الاجتهادية ، ثم إذا اتفق التعدد تفحص عن المتقدم فأمضي ولو أصر الآخر فهو من البغاة ، ولا يجوز العقد لإمامين في صقع متضـــايق الأقطار ، أما في متسعها بحيث لا يسع الواحد تدبيره فهو محل الاجتهاد ، وللأمة خلع الإمام بسبب يوجبه وإن أدى إلى الفتنة احتمل أدنى المضرتين " [١] .

---

[١] الإمام عضد الدين الإيجي : المواقف (ص ٤٠٠) .

عقيدة أهل السنة في الإمام بعد رسول الله ﷺ :

لقد ذهب جمهور علماء أهل السنة إلى أن الإمام بعد رسول الله ﷺ هــو أبو بكر الصديق ﷺ فإمامته ﷺ لا مطعن فيها ، فقد انعقدت باختيار أهل الحل والعقد من المسلمين ، وعلى هذا سار أئمة الإسلام في العصور المخـتلفة ، وإذا كـان المسلمون قد اختلفوا عقب وفاة النبي ﷺ ولكن هذا الاخـتلاف لـم يلبـث أن انتهى فقد صدقت النوايا في حسم الأمر والبعد بالمسـلمين عـن هوة الخلاف حيث لم يرد عن واحد منهم أنه أنكر إمامة أبـي بكر ﷺ ، وكما صحت إمامة أبو بكر الصديق ﷺ فقد صحت إمامة الخلفاء الثلاثة من بعده وهم عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين .

يقـول الإمـام الأشعري : ط قد أجمع هؤلاء الذين أثنى الله عليهم ومدحهـم علـى إمامـة أبي بكر ﷺ وسموه خليفة رسول الله ﷺ وبايعوه وانقـادوا له وأقروا له بالفضل ، وكان أفضل الجماعة في جميع الخصال التـي يستحق بها الإمامة من العلم والزهد وقوة الرأي وسداد الأمة وغير ذلك " [١] .

وإيمان أهل السنة بإمامة أبي بكر جاء من آيات القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ [٢] .

يقول الإمام القرطبي وحكى عن مجاهد أنهم أصحاب محمد ﷺ

---

[١] الإمام الأشعري : الإبانة عن أصول الديانة (٧٦) المطبعة السلفية الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ .

[٢] سورة انساء الآية (٥٩) .

خاصـــة وحكـــى عـــن عكرمة أنها إشارة إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خاصة [١] .

وقولـــــه تعـــالى ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وآثابهم فتحاً قريباً** ﴾[٢] وغير ذلك من الآيات .

وجاء في السنة : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ في مرضه " ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتاباً ، فإني أخاف أن يتمن متمن ويقول قائل : أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر" [٣] وغـــير ذلك من الأحاديث في هذا المقام ، هذا فضلاً عن إجماع الأمة سلفاً وخلفاً على الأئمة الأربعة .

يقول الإمام الأشعري : فقد حصل الإجماع والاتفاق على إمامة أبي بكر الصديق ، وإذا ثبتت إمامة الصديق ثبتت إمامة الفاروق لأن الصديق نص عليه وعقد له الإمامة واختاره لها وكان أفضلهم بعد أبي بكر رضي الله عـــنهما وثبتت إمامة عثمان ﷺ بعد عمر بعقد من عقد له الإمامة من أصـــحاب الشـــورى الذيـــن نـــص عليهم عمر فاختاروه ورضوا بإمامته وأجمعوا على فضله وعدله وثبتت إمامة علي بعد عثمان رضي الله عنهما بعقد من عقد له من الصحابة من أهل الحل والعقد ، ولأنه لم يدّع أحد من أهل الشورى غيره في وقته ، وقد اجتمع على فضله وعدله ، وإن امتناعه

---

[١] الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن . المجلد الثاني ص ١٩٢٣ .
[٢] سورة الفتح الآية (١٨) .
[٣] الإمام مسلم : صحيح مسلم (٤ / ١٨٥٧) .

عـن دعوى الأمر لنفسه في وقت الخلفاء قبله كان حقاً لعلمه أن ذلك ليس بوقت قيامه ، فلما كان لنفسه في غير وقت الخلفاء قبله كان حقاً لعلمه أن ذلـك وقـت قيامه ، ثم لما صار الأمر إليه أظهر وأعلن ولم يقصر حتى مضى على السداد والرشاد كما مضى قبله من الخلفاء وأئمة العدل والرشاد متبعيـن لكـتاب ربهـم وسنة نبيهم ، هؤلاء الأربعة المجمع على عدلهم وفضلهم رضي الله عنهم أجمعين " [١] .

وعلـى هذا فإن جمهور العلماء والمحققين من أهل السنة مجمعون على أن أمير المؤمنين بعد رسول الله ﷺ هو أبو بكر الصديق ﷺ ثم عمر الفاروق بعده ثم عثمان ثم عليّ رضي الله عنهم أجمعين .

يقول تعالى في كتابه الكريم ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ [٢].

وقولـه عليـه الصلاة والسلام " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " .

---

[١] الإمام الأشعري : الإبانة عن أصول الديانة (ص ٧٨) .
[٢] سورة الفتح الآية (٢٩) .

محتويات الكتـاب

تابع محتويات الكتاب

تابع محتويات الكتاب

تابع محتويات الكتاب

تابع محتويات الكتاب